١٥

الروائع

ابن خلدون

القبائل والامم الوحشية

المطبعة الكاثوليكية - بيروت

الروائع

سلسلة ابحاث في الادب ، ومنتخبات من اشهر اعلامه

السلسلة الاولى

ظهرت كاملا

في الشعر

٢ — الشعر الجاهلي : نشأته — فنونه — صفاته . — الشنفرى

٣ — المهلهل : منتخبات شعرية

٧ — امرؤ القيس : منتخبات شعرية

١٠ — ابو العتاهية : منتخبات شعرية

في النثر

١ — علي بن ابي طالب : نهج البلاغة

٤ — ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار ، وعجائب الاسفار (الجزء الاول)

٥ — « : « « « « (الجزء الثاني)

٦ — « « : « « « « « (الجزء الثالث)

٨ — ابن عبد ربه : العقد الفريد (الجزء الاول)

٩ — « « : « « « (الجزء الثاني)

ابن خلدون

العمران البدوي

درس ومنتخبات

بقلم

فؤاد افرام البستاني

استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

المطبعة الكاثوليكية

بيروت

١٩٢٨

١٥ — ٩

ابن خلدون

١٣٣٢ – ١٤٠٦

الرجل

ولد ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون في تونس سنة ١٣٣٢ ، من أسرة عربية الأصل ، تمتّ بنسبها الى اقيال كندة ثم الى شرفاء اشبيلية . وكان قد اشتغل افرادها بالسياسة ، فنشأ في ابن خلدون ميل الى تلك المغامرات . فما اتم العشرين من سنيه ، وكان قد مات ابواه بالطاعون ، حتى دخل في خدمة امير تونس . ولكنه لم يلبث ان انتقل الى مراكش فخدم سلطانها مدّة . وما زال يتنقل عند سلاطين المغرب واسبانيا ، تارة مرفوعاً ، وطورًا مخذولًا ، حتى سئم السياسة وتلاعباتها فاعتزلها مدة سبعة اعوام (١٣٧٥ – ١٣٨٢) صرف منها اربعة في قلعة ابن سلامة ، فكتب فيها مقدّمته الشهيرة وبدأ تاريخه

وفي سنة ١٣٨٢ رحل الى المشرق فاقام مدّة في القاهرة يعلّم ويتولّى القضاء . ثم ارسل يطلب عائلته ، فغرقت في الطريق . حينئذٍ ذهب الى مكة فحج ، ورجع الى مصر فلزم معيشة الانفراد الى سنة ١٣٩٤ . فرجع فيها الى القضاء مرات . وكان ان ظهر تيمورلنك في اراضي الشام ، فذهب ملك مصر لمحاربته واستصحب ابن خلدون معه ، فاستفاد هذا من تلك

الفرصة واتصل بالطاغية المشهور ، فامتدحه ورجع بعد ان نال الامـان. وكان منصبه في القضاء المالكي ، في مصر ، ينتظره ؛ فعاد اليه بعد المتاعب حتى مات سنة ١٤٠٦

اما اخلاقه وصفاته فجملها انـه كان كثير الثقة بنفسه ، مغامرًا في طلب المعالي ، صاحب دهاء وتدبير عجيبين يقرنهما الى كثير من الانانية وحب الظهور . وكان ايضاً متأثرًا جدًا بتربيته الدينية ، حتى رافقه هـذا التأثر في الكثير من احكامه

وقد توسّعنا كثيرًا في درس حياة الرجل واخلاقه في مقدّمة الجزء الثالث عشر من الروائع ، فلتُراجع

آثاره

قلنا في مقدّمة الجزء المذكور ، ان لابن خلدون آثارًا شعرية متوسطة القيمة ، وآثارًا نثرية لم يصلنا منها الّا التاريخ . ثم القينا نظرة اجماليـة على التاريخ وتقسيمه ، وقيمة ابن خلدون مؤرخاً

وقد حلّلنا ، في الجزء السابق ، «المقدّمة» المشهورة ، وذكرنا نسخها . ثم درسنا فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، فكانت النتيجة ما يلي :

الفيلسوف الاجتماعي

خلاصة ما يُقال عن آراء ابن خلدون، في مقدّمته ، انه ابتدع علماً جديدًا لم يسمّه هو ؛ انما نقدر نحن ان ندعوه «بالفلسفة الاجتماعية» . اما موضوع هذا العلم فهو «العمران البشري، والاجتماع الانساني مع ما يلحقه من العوارض والاحوال» . والمؤلف يستخدم التاريخ لتحقيق هـذا العلم ، ولا يبدأ بهذا العلم ، كما قـال البعض ، ليصحّح التاريخ . فان همه ليس تصحيح الروايات ليؤلف منها تاريخًا صادقاً ، بل نقدها ليختار منا ما يوافقه لتقرير علمه ؛ فيُصبح هذا العلم ، في عرفه ، غاية لا واسطة ؛ ويصبح غير موافق للاسم الذي ينعته به الـكتّاب عادة ، اذ يسمّونه «فلسفة التاريخ»

وقد سار ابن خلدون لتحقيق غايته هذه على طريقة عقلية ، استنتجها من مظاهر الـكون. فـكان موضوع درسه الاوّل البيئة الجغرافية وتأثيرها في اخلاق الشعب واحوالهم . ثم درس الظواهر الاجتماعية واشهرها الدين ، حتى انتهى الى البحث في الحياة الاجتماعية . وهناك اعطى قانونه الثـلاثي المهمّ في تطوّر الدول من حياة البداوة ، الى حياة الظفر والتغلّب فالملك ، الى الاضمحلال بالانغماس في الترف فظهور دولة جديدة . وبهذه المناسبة تـكلّم عن دور « العصبيّة » في تعزيز الملك. فـكانت كل ابحاثه غاية في الطرافـة رفعته ، في اقسامها المختلفة ، الى مستوى مونتسكيو ، وتارد ، ومـكياڤيل (راجع مقدّمة الجزء السابق ص : ر ، وما يليها)

الكاتب

من الآراء الشائعة ، والاحكام السائرة ، التي نراها في اكثر كتب الادب ونسمعها من معظم الادباء، انَّ ابن خلدون من اكبر كتّاب العرب، وان اساوبه في الأوج من الطرق الكتابية ، وان انشاءه ممتاز يصلح ان يكون نموذجاً يسير عليه الكتّاب ويتأثر به المنشؤون. وفعلًا فقد سار على هذا النموذج كثير من الكتبة ، وتأثر به عدّة من المنشئين ، مدة نصف قرنٍ بدؤها عام ظهور «المقدّمة» مطبوعة ، لاول مرّة ، في بولاق سنة ١٨٥٧

على اننا يلزمنا ان نستقبل هذا الرأي الشائع ، كسائر امثاله ، بمنتهى التحفُّظ . فنُعمل عقلنا في مؤدّاهُ ، وننتقده بهدوءٍ وانصاف . حتى اذا رأيناه موافقاً للحقيقة ، اقررناه وتبعنا سلفاءنا شاكرين ، والّا اصلحناه وخالفناهم عاذرين

وقبل ان نبحث في صفات انشاء مؤرّخنا ، وهل تؤهله لهذا المكان العالي الذي احتلّه ، ينبغي لنا ان نفتش عن سبب هذه الشهرة في المحيط الخارجي ، وعمّا اذا لم يكن للظروف من يد في اقرار هذا الحكم . فنرى ان المقدّمة كانت من اوائل كتب الادب العربي المنشورة بالطبع . فتلقّاها

ادباء النهضة الاولى ، ولا كتاب غيرها لديهم يستندون اليه في معانيهم وطرق تعبيرهم. لانها ظهرت قبل « كليلة ودمنة » « والاغاني » الكبير باحدى عشرة سنة ، وقبل «العقد الفريد» بسبع وعشرين سنة ، وقبل مؤلفات الجاحظ بنحو اربعين سنة. ثم اعيد طبعها في مصر، وطُبعت مرّات في بيروت؛ فكانت كتاب الادباء الوحيد، ودستور انشائهم الراقي. وكان ما يرونه في معانيها الشائقة ، ونتائجها الصائبة في اكثرها ، وافكارها الجديدة في عصرهم، يغتفر سقطات تعبيرها ، ويمحو لديهم تقلقل الفاظها ، واضطراب اسلوبها ، فلا ينتبهون الا الى المحاسن ، ولم يكن بوسعهم غير ذلك ، لما ذكرناه من الاسباب. فنفهم اذن سبب تلك الشهرة السائرة

اما اليوم وقد نُشرت اكثر الكتب الادبية ، فعرفنا المُنشىء الرزين في ابن المقفّع ، والاديب اللطيف في ابن عبد ربه ، والمصوّر الدقيق في ابي الفرج الاصبهاني، والكاتب الشخصي في الجاحظ ، فنرى اسلوب ابن خلدون يتخاذل امام هؤلاء ، وشهرته تتضاءل شيئاً فشيئاً. وانهُ لمن واجبنا الادبي ان ندرس صفات انشائه درساً منصفاً فنبين انه فيلسوف كبير ، وعالم اجتماعي دقيق ، كما قلنا ، ولكنه ليس بالكاتب

ابن خلدون مغربي النشأة والتربية ، دخل محيط الادب في القرن الرابع عشر . وقد رأينا انه تجاوز بيئته وزمانه بمراحل في ما يختصّ بالافكار والآراء. اما في الانشاء ، فلم يكن عنده من الشخصية الادبية ما يدفعه الى التخلّص من تأثير الزمان والمكان . وكأنه انصرف بكليّته الى الفكر فلم يهتمّ بالتعبير ، فبقي في اسلوبه مغربياً ، ومن القرن الرابع عشر :

نال من زمانه ، طريقة التكلّف ، وزيّ التبرّج السطحي ، فكثرت في جملته ، السجعات السخيفة بعض الاحيان ، والاستعارات والتشابيه الغريبة ، والقياسات المعقّدة ، والاسهاب الممل تارة ، والايجاز الغامض اخرى ؛ حتى ادى هذا الاسلوب المقلقل الى اضطراب في ترتيب الافكار ، وعدم انتظام في تناسقها ، ومراجعات عديدة تكاد تحول بين المطالع وافكار المؤلف النفيسة . ولنا شاهد على ذلك كثير من فصول الفصل الثاني من المقدّمة ، المنشورة في هذا الجزء ، ولاسيما ما يختصّ «بالعصبيّة» وشروط الملك ، وسبب اضمحلاله . فقد بذلنا الجهد في ايضاح ذلك بما وضعناه من الفواصل والنقاط بين الجمل ، وبما علّقناه من الشروح . وكذلك يرى المطالع كثيراً من الغموض والتعقّد ، في باب غزوات التبابعة ، المنشور في الجزء الثالث عشر من « الروائع » ، وخصوصاً في الصفحتين ١٠ و ١١ وذلك اطول من ان يمكننا نقله

اما تأثير المحيط الذي نشأ فيه الكاتب فيظهر خاصّة في التعقّد الناتج عن الاكثار من الضمائر ، والاسماء الموصولة ، والخلط بين الالفاظ ، وبعض الاغلاط اللغوية والنحوية . وهي صفة نراها في انشاء اكثر كتّاب المغرب ، الذين يقصّرون عادةً عن متانة الشرقيين ، ولا يدركون وضوح الاندلسيين ؛ فيقرب مؤلفنا ، في استعماله بعض الكلمات في غير مواضعها ، من ابن بطوطة ، وان يكن ابن خلدون اطول نفساً ، وامتن تركيباً من الرحّالة الشهير . واليكم مثلاً على الاكثار من الضمائر في هذه القطعة المأخوذة عن بحثه في آداب الرشيد . قال بعد ان نفى عن الخليفة تهمة السكر ، وقد وضعنا بين هلالين الاسم الذي ينوب عنه الضمير ، فيسهل المطالع

تحقق الغموض الذي يؤدي اليه اسلوب المؤلف:

« وانظر ما نقله الطبري والمسعودي في قصة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين أحضر له (للرشيد) السمك في مائدته (الرشيد) فحماه (ضمير الفاعل لجبريل وضمير المفعول للرشيد) عنه (عن السمك) ثم امر (جبريل) صاحب المائدة بحمله (بحمل السمك) الى منزله (منزل جبريل) وفطن الرشيد وارتاب به (بجبريل) ودسّ خادمه (خادم الرشيد) حتى عاينه (عاين جبريل) يتناوله (اي تناول السمك) » (١ .

فليقرأ المطالع هذا القطع بسرعة، دون انتباه الى الشروح، وليرَ هل يفهم فكر المؤلف بسهولة! ثم ليتبصّر، غير مأمور، بهذا المقطع الثاني المأخوذ من البحث في « فائدة التاريخ العام »:

«واما لهذا العهد وهو آخر المئة الثامنة فقد انقلبت احوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدّلت بالجملة واعتاض من اجيال البربر اهله على القديم بن طرأ فيه من لدن المئة الخامسة من اجيال العرب لما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا عامّة الاوطان وشاركوهم فيا بقي من البلدان لملكهم.» (٢

واذا اضفنا الى هذا الغموض، الناتج عن الاكثار من الضمائر واسماء الموصول، ما نراه من الخلط بين معاني الكلمات، خصوصاً في الابحاث عن «الحسب» ونهايته المنشورة في هذا الجزء، اذ يستعمل الكاتب الالفاظ: نهاية، غاية، كمال، دون تمييز بين معانيها فيريد بها تارةً اعلى درجة من

---

١) الروائع: الجزء ١٣ ص: ٢١

٢) الروائع الجزء: ١٣، ص: ٣٣، وقد اجتهدنا في ايضاح هذا المقطع بالفواصل والنقط والشروح

الحسب او تمامه ، وطورًا اضمحلاله وانقراضه ؛ عنـد ذاك نرى بحق وانصاف ، ان ابن خلدون فيلسوف معتبر ، واجتماعيٌّ دقيق ، ولكنه ليس بالكاتب الكبير!

مآخذ

يُضاف الى ما ذكر في مقدّمة الجزء الثالث عشر :

محمد لطفي جمعه : ابن خلدون — في تاريخ فلاسفـة الاسلام — مصر ، ١٩٢٧

كتاب العبر

وديوان المبتدا والخبر

في ايام

العرب والعجم والبربر

ومن عاصرهم

من ذوي السلطان الاكبر

الفصل الثاني

العمران البدوي

الامم الوحشية والقبائل — العرب

العمران البدوي

الامم الوحشية والقبائل — العرب

الفصل الاول

في ان اجيال البدو والحضر طبيعية

اعلم ان اختلاف الأجيال، في أحوالهم، انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش. فانّ اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله، والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط، قبل الحاجي، والكمالي (1. فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة، والزراعة؛ ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الشاء، والبقر، والمعز، والنحل، والدود للقزّ، لنتاجها، واستخراج فضلاتها. وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة، ولا بدّ، الى البدو(2 لانه متسع لما لا يتسع له الحواضر، من المزارع، والفُدُن(3،

1) يقسم ابن خلدون مرافق العيش الى ثلاثة انواع يعبّر عنها بالكلمات: الضروري، والحاجي، والكمالي. «فالضروري» هو ما لا بدّ منه في المعيشة، والذي بدونه لا تكون حياة، و«الحاجي» هو ما نسميه ايضاً باللازم الذي بدونه ينقص شيء من المعيشة، و«الكمالي» هو ما يكون للرفاهية ثم الترف

2) البَدْو: في الاصل، الصحراء وهو المراد، ثم أُطلقت على سكان الصحراء

3) الفُدُن: جمع الفدّان وهو المساحة للزرع، وحُصرت، في الاستعمال المصري، بمساحة اربعمائة قصبة مربّعة.

والمسارح للحيوان ، وغير ذلك . فكان اختصاص هؤلاء بالبدو امراً ضرورياً لهم . وكان حينئذٍ اجتماعهم ، وتعاونهم في حاجاتهم ، ومعاشهم ، وعمرانهم ، من القوت ، والكسوة ، والدفء ، انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ، ويحصل بُلغة العيش من غير مزيد عليه ، للعجز عمّا وراء ذلك

ثم اذا اتسعت احوال هؤلاء المنتحلين للمعاش ، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرّفه ، دعاهم ذلك الى السكون والدعة ؛ وتعاونوا في الزائد على الضرورة ، واستكثروا من الاقوات ، والملابس والتأنق فيها ، وتوسعة البيوت ، واختطاط المدن والامصار للتحضُّر

ثم تزيد أحوال الرفه والرغد ، فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت ، واستجادة المطابخ ؛ وانتقاء الملابس الفاخرة في انواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ؛ ومعالاة البيوت والصروح ، وإحكام وضعها في تنجيدها ؛ والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوّة الى الفعل ، الى غايتها . فيتخذون القصور والمنازل ، ويُجرون فيها المياه ، ويُعالون في صروحها ، ويبالغون في تنجيدها ، ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس ، او فراش ، او آنية ، او ماعون . وهؤلاء هم الحضر ، ومعناه : الحاضرون ، اهل الامصار والبُلدان . ومن هؤلاء من ينتحل ، في معاشه ، الصنائع ؛ ومنهم من ينتحل التجارة . وتكون مكاسبهم انمى وارفه من اهل البدو ؛ لأن احوالهم زائدة على الضروري ، ومعاشهم على نسبة وَجدهم (١

فقد تبيّن ان اجيال البَدوِ والحضر طبيعية لا بدَّ منها ، كما قلناه

---

١) الوَجد : المال

الفصل الثاني

في ان جيل العرب (١ في الخلقة طبيعي

قد قدمنا، في الفصل قبله، أن اهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفَلح، والقيام على الأنعام. وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات، والملابس، والمساكن، وسائر الاحوال والعوائد؛ ومقصرون عما فوق ذلك من حاجي او كمالي. يتخذون البيوت من الشعر او الوبر او الشجر، او من الطين والحجارة غير منجّدة. انما هو قصد الاستظلال والكنّ، لا ما وراءه؛ وقد يأوون الى الغيران والكهوف. واما اقواتهم فيتناولون بها يسيراً، بعلاج او بغير علاج البتّة، إلاّ ما مسّته النار

فمن كان معاشه منهم في الزراعة، والقيام بالفَلح، كان المقام به أولى من الظَعن. وهؤلاء سكّان المدر (٢، والقُرى، والجبال؛ وهم عامّة البَرْبر والأعاجم

ومن كان معاشه في السائمة، مثل الغنم والبقر، فهم ظُعّن، في الاغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم. فالتقلُّب في الارض اصلحُ بهم، ويسمّون «شاوية»، ومعناه: القائمون على الشاء والبقر. ولا يُبعدون في القَفر لفقدان المسارح الطيّبة. وهؤلاء مثل البَرْبر، والترك، واخوانهم من التُركمان، والصقالبة

واما من كان معاشهم في الإبل فهم اكثر ظَعْناً، وأبعد في القفر

---

١) العرب: في هذا الفصل وما يليه، يقصد ابن خلدون «بالعرب» البَدو منهم، لا غير

٢) المَدَر: المدن والقرى

مجالًا ؛ لان مسارح التلول ، ونباتها ، وشجرهـا ، لا تستغني بها الابل في قوام حياتها ، عن مراعي الشجر في القفر ، وورود مياهه الملحة ؛ والتقلّب ، فصلَ الشتاء ، في نواحيه ، فرارًا من اذى البَرْدِ الى دِفء هوائـه ، وطلباً لمفاحص (١ النِتاج في رماله ؛ اذ الابل اصعب الحيوان فِصالًا ومخاضاً ، واحوجها في ذلك الى الدفء. فاضطُّروا الى إبعاد النُّجعة . وربما ذادتهم الحامية عن التلول ايضاً ، فأوغلوا في القفار نفرةً مِن النصفة منهم ، والجزاء بعدوانهم (٢ . فكانوا ، لذلك ، اشدَّ الناس توحُّشاً ، وينزلون مَن اهل الحواضر ، منزلة الوحش غير المقدور عليه ، والمُفترس من الحيوانات العُجم . وهؤلاء هم العرب ؛ وفي معناهم ظواعن البَرْبَر ، وزِنَاتَة ، بالمغرب ؛ والاكراد ، والتركمان ، والترك ، بالمشرق . الّا ان العرب ابعد نُجعة ، واشدّ بداوة لانهم مختصّون بالقيام على الابل فقط . وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معاً

فقد تبيَّن أن جيل العرب طبيعي ، لا بدَّ منهُ في العُمران . والله ، سبحانه وتعالى ، اعلم !

الفصل الثالث

في ان البدو اقدم من الحضر ، وسابق عليه ؛ وان البادية اصل العمران ، والامصار مددٌ لها

قد ذكرنا ان البدو هم المقتصرون على الضروري في احوالهم ،

---

١) مفاحص : ج. مَفحص : الموضع الذي يحفره الطير ليبيض فيه — هنا : الحفرة التي تلد فيها الإبل   ٢) اي هرباً من معاقبتهم على اساءتهم السابقة

العاجزون عما فوقه ؛ وأن الحضر المُعْتَنون بحـاجات الترف والكمال ، في احوالهم وعوائدهم . ولا شك ان الضروري اقدم من الحاجي والكمالي ، وسابق عليه . لان الضروري أصل، والكمالي فرعٌ ناشيء عنه . فالبدو أصل للمدن والحضر ، وسابقٌ عليها . لان اول مطالب الانسان الضروري ؛ ولا ينتهي الى الكمال والترف الّا اذا كان الضروري حاصـلًا . فخشونة البداوة قبل رقّة الحضارة . ولهذا نجد التمدُّن غايةً للبدوي يجري اليها ، وينتهي بسعيه الى مُقترحه منها . ومتى حصل على الرياش ، الذي تحصُل له به احوال الشرف ، وعوائده ، عاج الى الدعة ، وامكن نفسه من قيـاد المدنية . وهكذا شأن القبائل المتبدّية كلّهم . والحضريّ لا يتشوّف الى احوال البـادية ، الّا لضرورة تدعوه اليها ، او لتقصير عن احوال اهل مدينته

ومما يشهد لنا ان البدو أصلٌ للحضر ، ومتقـدّم عليه ، أنّا اذا فتّشنا أهلَ مِصرٍ من الامصار ، وجدنا اولّية اكثرهم من اهل البـدو الذين بضاحية ذلك المصر وفي قراه ؛ وانهم ايسروا فسكنوا المِصر وعدلوا الى الدعة والترف الذي في الحَضَر . وذلك يدلّ على ان احوال الحضارة ناشئة عن احوال البداوة

ثم ان كل واحد من البدو والحضر بتفاوت الاحوال من جنسه، فربَّ حيٍّ أعظم من حيّ ؛ وقبيلة اعظم من قبيلة ، ومصرٍ أوسع من مصر ؛ ومدينة اكثر عمراناً من مدينة

فقد تبين ان وجود البدو متقدّم على وجود المدن والامصار ؛ واصلٌ لها . كما ان وجود المدن والامصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية . والله اعلم !

الفصل الرابع

في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر

وسببه ان النفس، اذا كانت على الفِطرَة الاولى، كانت متهيّئة لقبول ما يَرِدُ عليها وينطبع فيها من خيرٍ او شرّ . قال (صلعم) : «كل مولود يولد على الفِطرة . فأبواه يهوّدانه، او ينصّرانه، او يُمجّسانه .» وبقدر ما يسبق اليها من احد الخُلقين تبعد عن الآخر، ويصعب عليها اكتسابه . فصاحب الخير، اذا سبقت الى نفسه عوائد الخير، وحصلت لها ملكته، بَعُد عن الشرّ، وصعب عليه طريقه . وكذا صاحب الشرّ، اذا سبقت اليه ايضاً عوائده

واهل الحضر، لكثرة ما يعانون من فنون الملاذّ، وعوائد الترف، والاقبال على الدنيا، والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوّثت انفسهم بكثير من مذمومات الخُلق والشرّ، وبعُدت عليهم طُرُق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك؛ حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في احوالهم؛ فتجد الكثير منهم يقذعون في اقوال الفحشاء في مجالسهم، وبين كُبَرَائهم، واهل محارمهم (١)؛ لا يصدّهم عنه وازع الحشمة، لما اخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً

واهل البدو، وان كانوا مُقبلين على الدنيا مثلهم إلّا أنه في المقدار الضروري، لا في الترف، ولا في شيء من اسباب الشهوات واللذات ودواعيها . فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها، وما يحصل فيهم من

(١) اهل محارمهم : اي نساؤهم

مذاهب السوء، ومذمومات الخُلق، بالنسبة الى اهل الحضَر، اقلُّ بكثير. فهم اقرب الى الفطرة الاولى، وابعد عمّا ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقُبحها. فيسهُل علاجهم عن علاج الحضر، وهو ظاهر. وقد نوضح فيما بعد ان الحضارة هي نهاية العمران، وخروجه الى الفساد، ونهاية الشرّ، والبعد عن الخير

فقد تبين انّ اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر. «والله يُحب المتقين» ا (١

الفصل الخامس

في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر

والسبب في ذلك ان اهل الحضَر القوا جنوبهم على مِهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف ؛ ووكلوا امرهم، في المدافعة عن اموالهم وانفسهم، الى واليهم، والحاكم الذي يسوسهم، والحامية التي تولّت حراستهم. واستناموا الى الاسوار التي تحوطهم، والحِرز الذي يحول دونهم. فلا تهيجهم هَيعَة (٢، ولا ينفر لهم صيد. فهُم غارّون، آمنون، قد القوا السلاح. وربيت على ذلك منهم أجيال، وتنزّلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عِيالٌ على ابي مثواهم(٣ ؛ حتى صار ذلك خُلقاً لهم يتنزّل منزلة الطبيعة

---

١) القرآن : (سورة ٩ [التوبة] : ٤)

٢) الهيعة : صوت العدوّ المُفزع، ثم كل صوت يبعث على الفزع

٣) ابو مثواهم : اي رئيس عائلتهم

واهل البدو لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم في الضواحي ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم عن الاسوار والابواب ، قائمون بالمدافعة عن انفسهم ، لا يكلونها الى سواهم ، ولا يثقون فيها بغيرهم . فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ، ويتجافون عن الهجوع إلّا غِراراً (١) ، في المجالس ، وعلى الرحال ، وفوق الاقتاب (٢) ؛ ويتوجسون للنبآت (٣) والهيعات ؛ ويتفردون في القفر والبيداء ، مُدلين ببأسهم ، واثقين بأنفسهم ؛ قد صار لهم البأس خُلقاً ، والشجاعة سجيّة ، يرجعون اليها متى دعاهم داعٍ ، او استنفرهم صارخ . وأهل الحضر ، مهما خالطوهم في البادية ، أو صاحبوهم في السفر ، عيال عليهم ، لا يملكون معهم شيئاً من امر انفسهم . وذلك مُشاهَد بالعيان . حتى في معرفة النواحي ، والجهات ، وموارد المياه ، ومشاريع السُّبُل . وسبب ذلك ما شرحناه : واصله ان الانسان ابن عوائده ، ومألوفه ؛ لا ابن طبيعته ومزاجه . فالذي ألِفه من الاحوال حتى صار له خُلقاً وملكة وعادة ، تنزّل منزلة الطبيعة والجبلة . واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيراً صحيحاً . والله يخلق ما يشاء ! (٤)

---

١) الاغِراراً : اي قليلاً — الغِرار : القليل من النوم وسواه ؛ العَجَلة

٢) الأقتاب : ج . قَتَب : الرَحل او مقدّمه

٣) النبآت : ج . نبأة : الصوت الخفي ، وقد تُخصص بصوت الكلاب

الفصل السادس

في ان مُعاناة اهل الحضر للأحكام مُفسِدة للبأس فيهم ، ذاهبة بالمنفعة منهم

يلاحظ المؤلّف في هذا الفصل أن اعتياد الحضريين الخضوع للسلطة ، وقيامهم بالعقوبات المفروضة عليهم ، وانقيادهم للمؤدّبين من معلّمين وحكام ، يكسر سورة بأسهم ويُكسبهم المذلة

الفصل السابع

في ان سُكنى البدو لا تكون الا للقبائل اهل العصبيّة

اعلم ان الله سبحانه ركّب في طبائع البشر الخيرَ والشرّ كما قال تعالى : « وهديناه النَجدَين» (١ وقال : « فألهمَها فجورَها وتقواها » (٢ والشرُّ اقرب الخِلال اليه ، اذا أُهمل في مَرْعِي عوائده ، ولم يهذّبه الاقتداء بالدين . وعلى ذلك الجمُّ الغفير ؛ الا من وفّقه الله . ومن اخلاق الشرّ فيهم (٣ الظلمُ والعدوان بعضٌ على بعض : فمن امتدّت عينه الى متاع اخيه ، فقد امتدّت يده الى اخذه ، الّا ان يصدّه وازع . كما قال :

١) القرآن (سورة ٩٠ [البلد] : ١٠) ويفهم ابن خلدون «بالنَجدَين» الخير والشرّ؛ وكذلك فسرها البيضاوي

٢) القرآن (سورة ٩١ [الشمس] : ٨)

٣) فيهم : الضمير للناس

والظلم من شِيَمِ النفوس . فان تَجِد
ذا عفّةٍ ، فلعلّةٍ لا يظلمُ ! (١

فاما المدن والامصار فعُدوان بعضهم على بعض يدفعهُ الحُكّام والدولة ، بما قبضوا على ايدي مَن تحتهم من الكافّة ، ان يمتدّ بعضهم الى بعض ، او يعدو عليه . فهم مكبوحون بحكمة القهر والسُلطان عن التظالم . إلا اذا كان من الحاكم بنفسه . واماّ العُدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الاسوار ، عند الغفلة او الغِرّة ليلاً ، او العجز عن المقاومة نهارًا ؛ او يدفعه ذياد الحامية من اعوان الدولة ، عند الاستعداد والمقاومة

واما أحياء البدو فيَزَع بعضَهم عن بعضٍ ، مشايخُهم وكُبَراؤهم بما وقر (٢) في نفوس الكافة لهم ، من الوَقَار والتجلة . واما حِلَلُهم (٣ فانما يذود عنها ، من خارج ، حامية الحيّ من انجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم . ولا يصدق دفاعُهم وذيادُهم إلّا اذا كانوا عصبيّة ، واهل نسب واحد . لانهم بذلك تشتدّ شوكتهم ، ويخشى جانبهم . إذ نعرة (٤ كل احدٍ على نسبه وعصبيته أهمّ ؛ وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي ارحامهم وقرباهم موجودة في الطبائع البشريّة ؛ وبها يكون التعاضد والتناصر ، وتعظم رهبة العدوّ لهم . واعتبر ذلك فيما حكاه

---

١) البيت للمتنبي – راجع [الروائع : ج ١١ ، ص : ٣٣ ، البيت : ٢٧٥]
٢) وقر : ثبت .
٣) حللهم : ج . حِلّة : المجلس ، المجتمع ، والمراد بها منازل البدو
٤) النَعرة : من نَعَر القوم : هاجوا واجتمعوا

القرآن عن إخوة يوسف، عليه السلام، حين قالوا لابيه (١ : « لئن اكله الذئبُ، ونحن عُصبة، إنّا إذًا لخاسرون! » والمعنى انه لا يُتوهّم العدوان على احدٍ مع وجود العصبة له. (٢ واما المتفرّدون في انسابهم، فقلَّ ان تصيب احدًا منهم نعرة على صاحبه. فاذا أظلم الجوّ بالشرّ يوم الحرب، تسلّل كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسه خيفةً واستيحاشاً من التخاذل. فلا يقدرون، من اجل ذلك، على سُكنى القفر، إلا انهم حينئذٍ طعمةٌ لمن يلتهمهم من الامم سواهم. واذا تبيّن ذلك في السُكنى التي تحتاج للمدافعة والحماية، فبمثله يتبين لك في كل أمر يحمل الناس عليه : من نبوءة، او اقامة ملك، او دعوة. إذ بلوغ الغَرَض من ذلك كلّه انما يتمّ بالقتال عليه، لما في طبائع البشر من الاستعصاء. ولا بدَّ في القتال من العصبيّة، كما ذكرناه آنفاً. فاتخذه إماماً تقتدي به فيما نورده عليك بعد، والله الموفّق للصواب!

---

١) القرآن : (سورة ١٢ [يوسف] : ١٤)

٢) والواقع ان شرح ابن خلدون منحرف عن الصواب، إذ لا مطابقة بين نظريّته في العصبيّة التي هي «التعصّب الجنسي» ولفظة «العصبة» الواردة في هذا النصّ من القرآن، وهي بمعنى «الجماعة». وقد لاحظ ذلك الدكتور طه حسين، وزاد ان ابن خلدون كان يخاف قيامة فقهاء الاسلام الذي « كان من اهمّ مبادئه الغاء تلك العصبية المبنية على صِلَة الرحم ... ومن غاياته ان تُدمج جميع الشعوب العربيّة بادئ بدء، ومن ثمّ تُدمج كل الشعوب الاخرى في شعب واحد... » فاتاهم بتلك الآية كي يُبرهن انه لا يخرج عن حدود الدين في نظريّته المهمّة، « فخدع بذلك الدهاء المتدينين من ابناء عصره... » (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية – ص : ٨٦ – ٨٧)

الفصل الثامن

في ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه

وذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر ، الّا في الاقل . ومن صِلَتها النعرة على ذوي القُربى ، واهل الارحام أن ينالهم ضَيم ، ان تصيبهم هلكة . فان القريب يجد في نفسه غضاضةً من ظلم قريبه او العـداء عليه ؛ ويودّ لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك : نزعةٌ طبيعية في البشر مُذ كانوا . فـاذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريباً جدًّا بحيث حصل به الاتّحاد والالتحام ، كانت الوصلة ظـاهرة ، فاستدعت ذلك بمجرّدها ووضوحها . واذا بعُد النسب بعض الشيء ، فربما تُنوسي بعضها ، ويبقى منها شهرة ، فتحمِل على النصرة لذوي نسبه بالامر المشهور منه ، فرارًا من الغضاضـة التي يتوهّمها في نفسه من ظلمٍ ، وهو منسوب اليه بوجهٍ

ومن هذا الباب الولاء والحِلف ، اذ نعرة كل احد على اهل ولائه ، وحلفه ، للأنفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها ، او قريبها ، او نسيبها بوجهٍ من وجوه النسب . وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب ، او قريباً منها . ومن هذا تفهم معنى قوله (صلعم) : « تعلّموا من انسابكم ما تصلون به أرحامَكم » بمعنى أن النسب انمـا فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الارحام ، حتى تقع المناصرة والنعرة . وما فوق ذلك مستغنى عنه ؛ اذ النسب امر وَهمي لا حقيقة له ، ونفعه انما هو في هذه .

الوُصلة والالتحام . فاذا كان ظاهرًا واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قُلناه. واذا كان انما استفاد من الخبر البعيد، ضعُف فيه الوَهم وذهبت فائدته، وصار الشغل به مجاناً، ومن اعمـال اللهو المنهيّ عنه. ومن هذا الاعتبار معنى قولهم: «النسب علمٌ لا ينفع، وجهالة لا تضرّ.» بمعنى ان النسب اذا خرج عن الوضوح، وصـار من قبيل العلوم، ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس، وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبية، فـلا منفعة فيه حينئذٍ. والله سبحانه وتعالى أعلم

وفي الفصلين التاليين يبيّن المؤلف «ان الصريح من النسب انما يوجد للمتوحّشين في القفر من العرب ومن في معناهم» وذلك لبعـدهم في القفر وعدم تقرّبهم من غيرهم من الامم، ذاك التقرّب الذي يؤدي الى المصاهرة، او الولاء، او الحلف، وكلها من اسباب «اختلاط الانساب»

الفصل الحادي عشر [١]

في ان الرئاسة لا تزال في نصابها [٢] المخصوص من اهل العصبية

إعلم أن كلَّ حيّ او بطن من القبائل، وان كانوا عصابـةً واحدة

---

١) هذا الفصل ساقط من نسخ باريس وطبعتها . ولكنه في طبعة بولاق، وقد نقله الشيخ نصر الهوريني عن نسخة تونس، ولاحظ انه يطـابق الفصل الثـاني عشر فاثبته. وانّنا نرى فيه طريقة ابن خلدون في متابعـة احكامه، وجمله، ومفرداته ايضاً، مما لا يدع شكاً في صحة نسبته

٢) النِصاب: الاصل، ويريد بـه ابن خلدون الاسرة التي حفظت الملك بين اعضائها

لنسبهم العامّ ، ففيهم ايضاً عصبيّات أخرى لانساب خاصّة هي اشدّ التحاماً من النسب العامّ لهم : مثل عشير واحد ، او أهل بيت واحد ، او اخوة بني أب واحد ؛ لا مثل بني العمّ الاقربين او الابعدين . فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ، ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العامّ . والنعرة تقع من اهل نسبهم المخصوص ، ومن اهل النسب العامّ ؛ الّا انها في النسب الخاصّ أشدّ لقرب اللحمة . والرئاسة فيهم انما تكون في نصابٍ واحد منهم ، ولا تكون في الكل . ولما كانت الرئاسة انما تكون بالغلب ، وجب ان تكون عصبية ذلك النصاب اقوى من سائر العصائب ؛ ليقع الغلب بها وتتمّ الرئاسة لاهلها . فإذا وجب ذلك ، تعيَّن ان الرئاسة عليهم ، لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغَلب عليهم . اذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الاخرى ، النازلة عن عصابتهم في الغلب ، لما تمّت لهم الرئاسة . فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فَرعٍ منهم الى فرعٍ . ولا تنتقل الّا الى الاقوى من فروعه ، لما قُلناه من سرّ الغَلب . لان الاجتماع والعصبيّة بمثابة المزاج للمتكوّن . والمزاج في المتكوّن لا يصلح اذا تكافأت العناصر ، فلا بدّ من غلبة احدها ، والا لم يتمّ التكوين

فهذا هو سرّ اشتراط الغلب في العصبيّة ، ومنه تعيّن استمرار الرئاسة في النصاب المخصوص بها ، كما قرّرناه

ويستنتج ابن خلدون من المبدأ نفسه ، اي من ضرورة العصبية للغَلب ، ومن ثمّ للرئاسة ، مادّة الفصل الثاني عشر ، فيبرهن ان « الرئاسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم » لانهم لا يقرّون بالغلبة لغيرهم ، ويتدرّج الى ذكر الموالي والمصطَنعين وتميزهم عن النسب الأصلي فيقول :

الفصل الثالث عشر

في ان البيت والشرف ، بالاصالة والحقيقة ، لأهل العصبية ؛ ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وذلك ان الشرف والحسب انما هو بالخِلال ؛ ومعنى « البيت » أن يعدّ الرجل في آبائه أشرافاً مذكورين يكون له ، بولادتهم إياه ، والانتساب اليهم ، تجلّة في اهل جلدته ، لما وقر في نفوسهم من تجلّة سلفه ، وشرفهم بخلالهم . والناسُ ، في نشأتهم وتناسلهم ، معادن . قال (صلعم) : « الناس معادن ؛ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام ، اذا فقهوا » . فمعنى الحسب راجعٌ الى الانساب ؛ وقد بيَّنا ان ثمرة الانساب وفائدتها انما هي العصبية للنعرة والتناصُر . فحيث تكون العصبية مرهوبة ومخشية ، والمنبت فيها زكيّاً محميّاً ، تكون فائدة النسب اوضح ، وثمرتها اقوى . وتعديد الاشراف من الآباء زائدٌ في فائدتها . فيكون الحسب والشرف أصليين في اهل العصبيّة لوجود ثمرة النسب ، وتفاوت البيوت ، في هذا الشرف ، بتفاوت العصبيّة لانه سرّها

ولا يكون للمنفردين من اهل الامصار بيت إلّا بالمجاز . وان توهّموه ، فزُخرُفٌ من الدعاوى . واذا اعتبرت الحسب في اهل الامصار ، وجدتَ معناه ان الرجل منهم يعدُّ سلفاً في خلال الخير ، ومخالطة اهله ، مع الركون على العافية(١) ما استطاع . وهذا مُغاير لسرّ العصبيّة التي هي ثمرة النسب

---

(١) العافية : مصدر عافى الله فلاناً : دفع عنه السوء والبلاء . والمراد بها هنا : السكينة والسلام

وتعديد الآباء. لكنه يطلق عليه «حسب» و«بيت» بالمجاز، لعلاقة ما فيه من تعديد الآباء المتعاقبين على طريقة واحدة من الخير ومسالكه. وليس «حسباً» بالحقيقة وعلى الاطلاق

وقد يكون للبيت شرف اوّل بالعصبية والخِلال. ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة، كما تقدّم، ويختلطون بالغِمار (١)؛ ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحسب يَعـدّون به انفسهم من اشراف البيوتات، اهل العصائب، وليسوا منها في شيء. لذهاب العصبيّة جملةً. وكثير من اهل الامصار الناشئين في بيوت العرب او العجم لاوّلِ عهدهم، مُوَسْوَسُون بذلك. واكثر ما رسخ الوَسواس في ذلك لبني إسرائيل. فإنه كان لهم بيت من اعظم بيوت العالم: بالمنبت اولاً، لما تعدّد في سَلَفهم من الانبياء والرُسل من لدن ابراهيم، عليه السلام، الى موسى، صاحب ملّتهم وشريعتهم. ثم بالعصبيّة ثانياً، وما اتاهم الله به من المُلك الذي وعدهم به. ثم انسلخوا عن ذلك اجمع، وضُربت عليهم الذلّة والمسكنة؛ وكتب عليهم الجلاء في الارض؛ وانفردوا بالاستعباد للكُفر آلافاً من السنين. وما زال هذا الوَسواس مصاحباً لهم، فتجدهم، يقولون: «هذا هاروني!» — «هذا من نسل يوشع!» — «هذا من عقب كالب!» — «هذا من سبط يهوذا!» مع ذهاب العصبية، ورسوخ الذلّ فيهم، منذ أحقاب متطاولة. وكثير من اهل الامصار وغيرهم، المنقطعين في أنسابهم عن العصبية، يذهب الى هذا الهذيان

---

١) الغَمار: والغُمار: جماعة الناس

وقد غلط ابو الوليد ابن رشد(١ في هذا، لمّا ذكر الحسب في «كتاب الخطابة» من تلخيص كتاب المعلّم الاول (٢ فقال: «والحسب هو ان يكون من قومٍ قديمٍ نُزُلهم بالمدينة» ولم يتعرّض لما ذكرناه. وليت شعري ما الذي ينفعه قِدَمُ نُزُلِهم بالمدينة، إن لم يكن لهم عصابة يُرهب بها جانبه، وتحمل غيره على القبول منه. فكأنه اطلق «الحسب» على تعديد الآباء فقط. مع ان الخطابة (٣ انما هي استمالة من تؤثر استمالته، وهم اهل الحلّ والعقد. واما من لا قدرة له البتة فلا يلتفت اليه، ولا يقدر على

---

١) ابن رشد: (١١٢٦ — ١١٩٨) من اشهر فلاسفة الإسلام، ان لم نقل اشهرهم. اندلسي الأصل. وُلد في قرطبة وتوفي في مراكش. اشتغل في كل علوم عصره فترك التآليف العديدة في الفلسفة، والمنطق، والطبّ، والعلوم الطبيعية، والادب. اشهر ما وصل الينا من كتبه: «فصل المقال» يجتهد فيه ان يوفّق بين العلم والدين — «تهافت التهافت» ردّ على «تهافت الفلاسفة» للغزالي — «الكليّات» في الطب — عدا الشروح والتعاليق العديدة على كتب ارسطو الذي كان يعتبره اعظم الفلاسفة. وقد درس ارنست رينان (Renan) فلسفة ابن رشد درساً وافياً في كتاب سمّاه: « Averroès et l'Averroïsme » طبعه في باريس ١٨٥٢؛ وفي عصرنا هذا قام المستشرق غوتيه(Gauthier) فدرس آراء ابن رشد في الصلة بين الدين والفلسفة وطبع كتابه سنة ١٩٠٩ — اما كتاب الخطابة الذي يتكلّم عنه ابن خلدون فهو قسم من تلخيص ابن رشد لكتب ارسطو اكبر فلاسفة اليونان، والذي يسمّى «المعلّم الاول»

٢) المعلّم الاول: هكذا في طبعة بولاق، اما في طبعة باريس فنرى «العلم الاول» والصواب «المعلّم الاول» كما ذكرنا؛ لانه لقب ارسطو عند العرب. ولا حاجة الى شرح العلم الاول بجمل كتب ارسطو، كما فعل دي سلان في ترجمته (t. I - p. 282)

٣) الخطابة: اي كتاب ارسطو المأخوذ عن هذا المقطع. وان ردّ ابن خلدون في هذا الباب، ينال ليس فقط ابن رشد، بل ارسطو ايضاً

استمالة احد ، ولا يُستمال هو ، واهلُ الامصار من الحضر ، بهذه المثابـة .
الا ان ابن رشد ربي في جبل وبلدٍ ، ولم يمـارسوا العصبيّة ، ولا أنِسوا
احوالها . فبقي في امر «البيت» و «الحسب» على الامر المشهور من تعديد
الآباء على الاطلاق . ولم يُراجع فيه حقيقة العصبيّة وسرّها في الخليقة .
والله بكل شيء عليم !

الفصل الرابع عشر

في ان البيت والشرف للموالي (١) واهل الاصطناع
انما هو بمواليهم لا بانسابهم

وذلك انّا قدّمنا أن الشرف بالاصالة والحقيقة انما هو لاهل العصبيّة .
فاذا اصطنع اهـل العصبيّة قوماً من غير نسبهم ، او استرقّوا العبدان
والموالي ، والتحموا بهم ، كما قلناه ، ضرب معهم اولئك الموالي والمصطَنعون
بسهمٍ في تلك العصبيّة ، ولبسوا جلدتَها ، كأنها عصبيتهم ، وحصل لهم
من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها ، كما قال (صلعم) : « مولى القوم
منهم : وسواء كان مولى رقّ ، او مولى اصطناع ، وحلف . » وليس نسب
ولادته بنافعٍ له ، في تلك العصبية ، إذ هي مباينة لذلك النسب . وعصبيّة

١) الموالي : ج . المولى : والمولى لفظة تدلّ على معنيين متناقضين في باب الحقّ المدني : ١ً العبد المعتَق ، او الغريب المُجار — ٢ً السيد المُعتِق او المُجير — وهي هنا بالمعنى الاول ، وفي آخر العنوان بالمعنى الثاني

ذلك النسب مفقودة لذهاب سرّهـا عند التحامه (١ بهذا النسب الآخر، وفقدانه(١ أهل عصبيتها. فيصير من هؤلاء، ويندرج فيهم. فاذا تعدّدت له الآباء في هـذه العصبية، كان له بينهم شرف وبيت على نسبته في وِلائهم، واصطناعهم، لا يتجاوزه الى شرفهم؛ بل يكون أدوَن منهم على كل حال. وهذا شأن الموالي في الدول، والخَدَمة كلّهم. فانهم انما يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها، وتعدُّد الآباء في وِلايتها. ألا ترى الى موالي الاتراك، في دولة بني العباس، والى بني بَرْمَـك (٢ من قبلهم، وبني نُوبَخْت (٣، كيف ادركوا البيت والشرف، وبنوا المجد والاصـالة، بالرسوخ في ولاء الدولة! فكان جعفر بن يحيي بن خالد من اعظم الناس بيتاً وشرفاً بالانتساب الى ولاء الرشيد وقومه، لا بالانتساب في الفرس. وكذا موالي كل دولة وخَدَمَتها، انما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولائها والاصالة في اصطناعهـا، ويضمحلّ نسبهم الاقدم من غير نسبها، ويبقى ملغىً لا عبرة به في اصالتـه ومجده. وانما المعتبر نسبة ولائه واصطناعه، اذ فيه سرّ العصبيّة التي بها البيت والشرف. فكان شرفه مشتقاً من شرف مواليه، وبناؤه من بنائهم. فلم ينفعه نسب ولادته وانما بنى مجدَه نسبُ الولاء في الدولة، ولحمة الاصطناع فيها، والتربية. وقد يكون نسبه الاول في لحمة عصبية ودولة، فـاذا ذهبت، وصار

---

١) التحامه وفقدانه: الضمير عائد للمولى المنتسب الى القوم

٢) راجع ما قاله ابن خلدون عن البرامكة — [الروائع: ج ١٣، ص: ١٥— ١٨] وما ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد — [الروائع: ج ٩، ص: ٨٥]

٣) بنو نُوبَخْت: المراد بهم ولدا سهل ابن نُوبخت، الفضل والحسن، وكانا من وزراء المأمون

ولاؤه واصطناعه في أخرى ، لم تنفعه الاولى لذهاب عصبيتها ، وانتفع بالثانية لوجودها . وهذا حال بني بَرْمك : إذ المنقول انهم كانوا اهل بيت في الفُرس ، من سَدَنة (١ بيوت النار عندهم . ولما صاروا الى ولاء بني العباس ، لم يكن بالاول اعتبار . وانما كان شرفهم من حيث ولايتهم في الدولة ، واصطناعهم . وما سوى هذا فوَهم تُوَسْوِس به النفوسُ الجامحة ، ولا حقيقة له . والوجود شاهدٌ بما قلناه . « وإنَّ اكرَمَكم عند الله اتقاكم ! » (٢

الفصل الخامس عشر

في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة آباء

إعلم ان العالم العنصري بما فيه كائنٌ فاسد ، لا من ذواته ولا من احواله (٣ ؛ فالمكوَّنات من المعدن ، والنبات ، وجميع الحيوانات : الانسان وغيره ، كائنة فاسدة بالمعاينة . وكذلك ما يعرض لها من الاحوال . وخصوصاً الانسانية : فالعلوم تنشأ ثم تدرس ؛ وكذلك الصنائع وامثالها . والحسبُ من العوارض التي تعرض للآدميين ؛ فهو كائن فاسد لا محالة . وليس يوجد لاحدٍ من اهل الخليقة شرفٌ متصل في آبائه من لدنِ آدم اليه ؛ الا ما كان من ذلك للنبي (صلعم) كرامةً به ، وحياطةً على الشرفية (٤

١) سَدَنة : ج . سادِن : خادم الكعبة ، او بيت النار عند الفُرس ؛ الحاجب ؛ البوّاب ٢) القرآن : (سورة ٤٩ [الحجرات] : ١٣)

٣) لا من كذا . . . ولا من كذا . . . : تعبير خاص بابن خلدون معناه : ليس فقط من كذا . . . بل ايضاً من كذا . . .

٤) الشرفيَّة : كذا في طبعة باريس ؛ وفي طبعة بولاق : السرّ فيه

واول كلّ شرفٍ خارجيّة ، كما قيل . وهي الخروج عن الرئاسة والشرف الى الضعة والابتذال، وعدم الحسب . ومعناه : ان كل شرف وحسب فعدمُه سابقٌ عليه ، شأنَ كل مُحدَث . ثم ان نهايته في اربعة آباء : وذلك أن باني المجد عالمٌ بما عاناه في بنائه ، ومحافظٌ على الخِلال التي هي اسباب كونه . وابنُه ، من بعده ، مباشرٌ لابيه ؛ فقد سمع منه ذلك ، واخذه عنه . إلّا انه مقصّر في ذلك تقصيرَ السامع بالشيء عن المُعاني له . ثم اذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة ؛ فقصّر عن الثاني تقصيرَ المقلّد عن المُجتهد . ثم اذا جاء الرابع قصّر عن طريقتهم جملةً ، واضاع الخِلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها ؛ وتوهّم انّ ذلك البُنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلّف . وانما هو امر وجب لهم منذ اوّل النشأة بمجرّد انتسابهم ، وليس بعصابة ولا بخلال ؛ لِما يرى من التجلّة بين الناس ، ولا يعلم كيف كان حدوثها ، ولا سببها . ويتوهّم انه النسب فقط . فيَرْبأ بنفسه عن أهل عصبيّته ، ويرى الفضلَ له عليهم ، وثوقاً بما ربيَ فيه من استتباعهم ، وجهلًا بما اوجب ذلك الاستتباع من الخِلال التي منها التواضع لهم ، والاخذ بمجامع قلوبهم . فيحتقرهم لذلك ، فينتقضون عليه ، ويحتقرونه ، ويديلون(١ منه سواه من اهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك العقب ، للإذعان لعصبيّتهم ، كما قلناه ؛ بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله . فتنمو فروع هذا وتذوي فروع الاول ، وينهدم بناء بيته . هذا في الملوك ؛ وهكذا في بيوت القبائل والامراء واهل العصبية أجمع ؛ ثم في بيوت اهل الامصار : اذا انحطّت

---

١) يديلون : من أدال الله زيداً من عمرو : نزع الدولة من عمرو وحوّلها الى زيد

بيوت ، نشأت بيوت أُخرى من ذلـك النسب . « إن يشأ يُذهِبـكم ويأتِ بخلقٍ جديد . وما ذلك على الله بعزيز ! » (١

واشتراط الاربعة في الاحساب انما هو في الغالب . والا فقد يندثر البيت من دون الاربعة ، ويتلاشى وينهدم . وقد يتَّصل امرها الى الخـامس والسادس ؛ الّا انه في انحطاط ، وذهاب . واعتبارُ الاربعة من قبَل الاجيال الاربعة : بانٍ ، ومباشر له ، ومقلّد ، وهادم ! وهو اقل ما يُمكن .

وقد اعتبرت الاربعة في نهاية الحسب ، في باب المدح والثناء :

قال (صلعم) : « انما الكريم ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ! » إشارة الى انه بلغ الغـاية من المجد

وفي التوراة ما معناه : « إن الله ربك طائقٌ ، غيور ، مطالبٌ بذنوب الآباء للبنين على الثوالث والروابع . » (٢ وهذا يدلّ على ان الاربعـة الاعقاب غاية في الانساب والحسب

---

١) راجع القرآن : (سورة ٤ [النساء] : ١٣٢) وفيها بعض الاختلاف

٢) وفي التوراة : « انا الربّ ، إلهُك ، إلهٌ غيورٌ ، افتقد ذنوب الآباء في البنين الى الجيل الثالث والرابع من مُبغضيّ . » (سفر الخروج : الفصل العشرون : ٥) مانتقاص كلمة « طائق » التي ذكرها ابن خلدون . وهذه الكلمة ناقصة ايضاً في نسخة التوراة العبرانية ، والنسخة السامرية ، وفي كل النسخ العربية . ولا توجد الا في النسخة « العامّية » (Vulgate) . وهذا الامر حمل المستشرق دي سلان على الاعتقاد ان ابن خلدون عرف ترجمة عربية لهذه النسخة الاخيرة — راجع ترجمة دي سلان للمقدمة (t. I ; p. 288–289)

وفي كتاب الاغاني (١ في اخبار عُوَيف القوافي (٢ ، ان كسرى قال للنعمان : «هل في العرب قبيلة تتشرّف على قبيلة ؟» قال: « نعم !» قال: « بأيّ شيء ؟ » قال: « من كان لـه ثلاثةُ آباء متوالية رؤساء ؛ ثم اتّصل ذلك بكمال الرابع ، فالبيت من قبيلته .» وطلب ذلك فلم يجدْه الّا في آل حذيفة بن بدر الفزاري، وهم بيت قيس ؛ وآل حاجب بن زرارة ، وآل قيس بن عاصم المنقري ، من بني تميم ؛ وآل ذي الجدّين ، بيت شيبان ؛ وآل الاشعث بن قيس ، من كندة . فجمع هؤلاء الرهط ، ومن تبعهم من عشائرهم ، واقعد الحكّام العدو ل(٣ فقام حذيفة بن بَدْر ؛ ثم الأشعث بن قيس ، لقرابته من النعمان ؛ ثم بسطام بن قيس بن شيبـان ؛ ثم حاجب بن زرارة ؛ ثم قيس بن عاصم ؛ وخطبوا ، ونثروا . فقال كسرى : « كلّهم سيّد

---

١) الاغاني : كتاب مشهور ، وضعه ابو الفرج الاصبهاني (٨٩٧ — ٩٦٧) لشرح الاغاني السائرة عند العرب ، في عصره ؛ فذكر تراجم اصحابها ، والظروف التي حملتهم على انشادها ، مع وصف محيطهم واخبارهم ، وذكر طائفة من اشعارهم ؛ الى غير ذلك من المعلومات الادبية ، والجغرافية ، والتاريخية ، والفنية ؛ مما جعل كتابه اغزر مورد لمآخذ الآداب العربية في العصر الجاهلي ، والثلاثمائة سنة الاولى من الاسلام — طُبع منه في بولاق ، سنـة ١٨٦٨ ، عشرون جزءًا ؛ فاتمّه المستشرق برونوف (Brunnow) بالجزء الحادي والعشرين الذي طبعهُ في ليدن . ثم اشتغل بعض المستشرقين بعناية غويدي (I. Guidi) فنشروا فهارسه الواسعة في مجلّد كبير . وتهتمّ دار الكتب المصرية الآن باعداد طبعة متقنـة لهذا الكتاب ، ظهر منها المجلّد الاول ، فاذا هو ممتاز جدًا استوفى من الشروط اللازمة ، التي خلت منها الطبعات السابقة .

٢) عويف القوافي : عويف بن معاوية الفزاري ، من مقلّي شعراء الدولـة الاموية ، كان يسكن الكوفة ، وبيته احد البيوتات الشريفة عند العرب

٣) العُدول : ج . عادل : المنصف في حكمه

يصلح لموضعه . » وكانت هذه البيوتات هي المذكورة في العرب ، بعد بني هاشم (١ . ومعهم بيت الديّان (٢ من بني الحرث بن كعب ، بيت اليمن . وهذا كلّه يدلّ على ان الاربعة الآباء نهاية الحسب . والله اعلم !

الفصل السادس عشر

في ان الامم الوحشية اقدر على التغلّب من سواها

إعلم انه لما كانت البداوة سبباً في الشجاعة ، كما قلنا في المقدّمة الثالثة ، (٣ لا جرم كان هذا الجيل الوحشي اشدّ شجاعة من الجيل الآخر . فهم اقدر على التغلّب ، وانتزاع ما في ايدي سواهم من الامم . بل الجيل الواحد تختلف احواله في ذلك باختلاف الاعصار . فكلّما نزلوا الارياف ، وتفنّقوا (٤ النعيم ، وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم ، نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحّشهم ، وبداوتهم . واعتبرْ ذلك في الحيوانات العُجم بدواجن الظباء ، والبقر الوحشية والحُمُر ، اذا زال توحشها بمخالطة الآدميين ، واخصب عيشها ، كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدّة ، حتى في مشيتها وحسن اديمها . وكذلك الآدميّ

---

١) بنو هاشم : عائلة النبي ، فرع من بني قُرَيش

٢) الديّان : كذا في نسخة باريس ؛ وفي طبعة بولاق « الذيان » وهو تصحيف لان المشهور عن بني ذيان انهم لم يكونوا في اليمن .

٣) هذا المأخذ غلط . وان المؤلّف اراد ، دون شك ، ان يُحيل القارئ الى الفصل الخامس من هذا البحث ؛ لا الى المقدّمة الثالثة من البحث الماضي ، راجع ص : ٧

٤) تفنّق : انغمس في النعيم .

المتوحّش، اذا أنس وألف. وسببه أنَّ تَكَوُّنَ السجايا والطبائع انمـا هو عن المألوف والعوائد. واذا كان الغلب للأُمم انما يكون بالاقـدام والبسالة، فمن كان من هذه الاجيال أَعْرَقَ في البداوة، واكثر توحُّشاً، كان اقرب الى التغلب على سواه، اذا تقاربا في العَدد، وتكافأا في القوة والعصبية

وانظرْ في ذلك شأن مُضَر مع من قبلهم من حِمْيرَ وكهلان السابقين الى المُلك والنعيم؛ ومع ربيعة المتوطنين ارياف العِراق، ونعيمه؛ لما بقي مُضَر في بداوتهم، وتقدَّمهم الآخرون الى خصب العيش، وغضارة النعيم؛ كيف ارهفت البداوة حدَّهم في التغلُّب، فغلبوهم على ما في ايديهم وانتزعوه منهم. وهذا حال بني طيْ، وبني عامر بن صعصعة، وبني سُلَيم ابن منصور، من بعدهم، لما تأخروا في باديتهم على سائر قبائل مُضر واليمن ولم يتلبّسوا بشيء من دُنياهم؛ كيف امسكت حالُ البداوة عليهم قوّة عصبيتهم، ولم تخلقها مذاهب الترف، حتى صاروا اغلب على الامر منهم. وكذا كلّ حيّ من العرب يلي نعيماً، وعيشاً خصباً، دون الحيّ الآخر. فانَّ الحيّ المتبدّي يكون اغلب له، واقدر عليـه، اذا تكافأا في القوّة والعدد: سنّة الله في خلقه!

الفصل السابع عشر

في ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي المُلك

وذلك لأنّا قدّمنا أن العصبية بها تكون الحماية، والمدافعة، والمطالَبة وكل أمر يُجتمع عليه. وقدَّمنا ان الآدميين، بالطبيعة الانسانية، يحتاجون، في كل اجتماع، الى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض. فلا بدَّ ان يكون

متغلّباً عليهم بتلك العصبية ، والّا لم تتمّ قدرته على ذلك. وهـذا التغلّب هو المُلك • وهو امرٌ زائد على الرئاسة . لان الرئاسة انما هي سؤدد ، وصاحبها متبوع ؛ وليس له عليهم قهرٌ في احكامه . وامّا المُلك فهو التغلّب والحُكم بالقَهر . وصاحب العصبية ، اذا بلغ الى رتبةٍ ، طلب ما فوقها ؛ فاذا بلغ رتبة السؤدد والاتّباع ، ووجد السبيل الى التغلّب والقهر ، لا يتركه لانه مطلوبٌ للنفس ؛ ولا يتمّ اقتدارُها عليـه الا بالعصبية التي يكون بها متبوعاً . فالتغلّب الملكي غايةٌ للعصبية ، كما رأيت . ثم ان القبيل الواحد ، وان كانت فيه بيوتات مفترقة ، وعصبيّات متعددة ، فلا بدّ من عصبيّة ، تكون اقوى من جميعها ، تغلبها ، وتستتبعها ، وتلتحم جميع العصبيات فيها ، وتصير كأنها عصبية واحدة كُبرى . والّا وقع الافتراق المُفضي الى الاختلاف والتنازُع . «ولولا دفعُ الله النـاسَ بعضهم ببعض، لفسدتِ الأرض» (١

ثم اذا حصل التغلّب بتلك العصبية على قومها ، طلبت ، بطبعهـا ، التغلب على اهل عصبية أخرى بعيدة منها . فان كافأتها ، او مانعتها ، كانوا قتالًا (٢ وانظارًا ، ولكل واحدة منها التغلّب على حوزتها وقومها : شأن القبائل والامم المتفرّقة في العالم . وان غلبتها واستتبعتها ، التحمت بها ايضاً ، وزادت قوّةً ، في التغلّب ، الى قوّتها ؛ وطلبت غاية من التغلب والتحكم اعلى من الغاية الاولى وابعد . وهكذا دائماً حتى تُكافئ بقوّتها قوّة الدولة . فان ادركت الدولة في هَرمها ، ولم يكن لها ممانع من اولياء

---

١) القرآن : (سورة ٢ [البقرة] : ٢٥٢)

٢) الأَقتال : جـ. قِتْل : العدوّ ؛ المقاتل ؛ القِرن ؛ النظير .

الدولة، أهل العصبيات، استولت عليهـا، وانتزعت الامر من يدها، وصار الملك اجمع لها. وان انتهت الى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة، انما قارن حاجتها الى الاستظهار بأهل العصبيات، انتظمتها الدولة في اوليائها تستظهر بها على ما يعنّ من مقاصدها. وذلك مُلكٌ آخر دون المُلك المستبدّ. وهو كما وقـع للتُرك في دولة بني العبّاس (١)؛ ولصَنهاجة وزَناتة مع كِتامة (٢)؛ ولبني حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية (٣) والعبّاسية (٤).

فقد ظهر ان الملك هو غاية العصبيّة. وأنها اذا بلغت الى غايتها حصل للقبيلة الملك: إما بالاستبداد او بالمظـاهرة، على حسب ما يسعه الوقت المقـارن لذلك. وان عاقها عن بلوغ الغاية عوائق، كما نبيّنه، وقفت في مقامها، الى ان يقضي الله بأمره

---

١) كان اول دخول الاتراك في خدمة الخلفاء العبّاسيين، في بغداد، على عهد المنصور (٧٥٤–٧٧٥). ثم اخذ عددهم يتكاثر، فتقرّبوا من مناصب الدولة المهمّة حتى ادخلهم المعتصم بالله (٨٣٣–٨٤٢) الدواوين، واستكثر منهم فبلغ غلمانه ثمانية عشر الف تركي. فلم يلبثوا ان استولوا على المملكة بعد قتل المتوكّل (٨٤٧ – ٨٦١).

٢) كانت كِتامة من اعظم نصراء الفاطميين. اما تغلّب قبائـل صنهاجة وزناتة عليهم، فكان اصله ان الفاطميين عهدوا بامارة افريقية لبعض القبائـل الصنهاجية، فلم تلبث ان استقلّت عنهم. وحصل الأمر نفسه، إذ عهـد الفاطميون بامارة فاس الى قبيلة مكناسة الزناتيـة؛ فالتحق اميرها بأموي الاندلس، وترك مواليه الاوّلين.

٣) العلويّة: اي فاطميّو مصر.

٤) العبّاسية: اي خلفاء بغداد، ويذكرهم ابن خلدون، بـين ملوك الشيعة، لانهم نالوا الخلافة، وتغلّبوا على بني أُميَّـة بواسطة دعاة الشيعة ورجالها كما هو مشهور. واستقلال بني حمدان الفعلي عن الخلفاء مشهور ايضاً.

الفصل الثامن عشر

في ان من عوائق الملك حصول الترف، وانغماس القبيل في النعيم

وسبب ذلك ان القبيل، اذا غلبت بعصبيّتها بعض الغلب، استولت على النعمة بمقداره؛ وشاركت اهل النعيم والخصب في نعمتهم وخصبهم، وضربت معهم في ذلك بسهم وحصّة بمقدار غلبها، واستظهار الدولة بها. فان كانت الدولة من القوّة بحيث لا يطمع احد في انتزاع امرها ولا مشاركتها فيه، اذعن ذلك القبيل لولايتها، والقنوع بما يسوّغون من نعمتها، ويُشركون فيه من جبايتها؛ ولم تسمو آمالهم الى شيء من منازع الملك، ولا اسبابه. انما همّهم النعيم، والكسب، وخصب العيش، والسكون، في ظلّ الدولة، الى الدعة والراحة، والاخذ بمذاهب الملك في المباني، والملابس؛ والاستكثار من ذلك والتأنّق فيه، بمقدار ما حصل من الرياش، والترف، وما يدعو اليه من توابع ذلك. فتذهب خشونة البداوة، وتضعف العصبيّة والبسالة، ويتنعمون فيما اتاهم الله من البَسطة. وينشأ بنوهم واعقابُهم في مثل ذلك من الترفّع عن خدمة أنفسهم، وولاية حاجاتهم. ويستنكفون عن سائر الامور الضرورية في العصبيّة؛ حتى يصير ذلك خُلقاً لهم وسجيّة. فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الاجيال بعدَهم بتعاقبها؛ الى ان تنقرض العصبيّة، فيأذنون بالانقراض. وعلى قدر ترَفهم ونعمتهم يكون اشرافهم على الفناء، فضلًا عن المُلك. فانّ عوارض الترَف والغرق في النعيم كاسرٌ من

سورة العصبية التي بها التغلّب. واذا انقرضت العصبية، قصَّر القبيل عن المدافعة والحماية، فضلًا عن المطالبة؛ والتهمتهم الامم سواهم

فقد تبيَّن أَن الترف من عوائق الملك. «والله يؤتي مُلكه من يشاء!» (١

الفصل التاسع عشر

في ان من عوائق الملك حصول المذلّة للقبيل والانقياد الى سواهم

وسبب ذلك ان المذلّة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدّتها. فان انقيادهم ومذلّتهم دليل على فقدانها. فما رئموا للمذلّة حتى عجزوا عن المدافعة؛ ومن عجز عن المدافعة فأولى ان يكون عاجزًا عن المقاومة والمطالبة

سبب تيه بني إسرائيل

واعتبِرْ ذلك في بني اسرائيل لمّا دعاهم موسى، عليه السلام، الى مُلك الشام، واخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها، كيف عجزوا عن ذلك وقالوا: «ان فيها قوماً جبّارين! وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها.»(٢ اي يخرجهم الله تعالى منها، بضربٍ من قدرته، غير عصبيّتنا؛ وتكون من معجزاتك يا موسى. ولما عزم عليهم، لجّوا، وارتكبوا

١) القرآن: (سورة ٢ [البقرة]: ٢٤٨)
٢) القرآن: (سورة ٥ [المائدة]: ٢٥ وما يتبعها)

العصيان، وقالوا له: «اذهب انت وربّك فقاتلا...» (١ وما ذلك الا لِا أنسوا من انفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة، كما تقتضيه الآية، وما يؤثر في تفسيرها. وذلك بما حصل فيهم من خُلق الانقياد، وما رئموا من الذلّ للقبط أحقاباً؛ حتى ذهبت العصبية منهم جملةً، مع انهم لم يؤمنوا حقّ الايمان بما اخبرهم به موسى من ان الشام لهم وان العمالقة، الذين كانوا بأريحا، فريستهم بحكم من الله قدّره لهم. فاقصروا عن ذلك وعجزوا، تعويلاً على ما في انفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خُلق المذلّة. وطعنوا فيما اخبرهم به نبيّهم من ذلك، وما امرهم به. فقابلهم الله بالتيه: وهو انهم تاهوا في قفرٍ من الارض، ما بين الشام ومصر، اربعين سنة لم يأووا فيها العُمران، ولا نزلوا مصرًا، ولا خالطوا بشرًا، كما قصّه القرآن (٢ ؛ لغلظة العمالقة بالشام، والقبط بمصر، عليهم لعجزهم عن مقاومتهم، كما زعموه. ويظهر من مَساق الآية ومفهومها ان حكمة التيه مقصودة: وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذلّ، والقهر، والقوّة، وتخلّقوا به، وافسدوا من عصبيّتهم. حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الاحكام والقهر، ولا يُسام بالمذلّة. فنشأت بذلك عصبيّة أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلّب. ويظهر لك من ذلك ان الاربعين سنة اقلّ ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر. سبحان الحكيم العليم!

وفي هذا اوضح دليل على شأن العصبيّة؛ وأنها هي التي تكون بها

---

١) القرآن: (سورة ٥ [المائدة]: ٢٧)

٢) راجع القرآن: (سورة ٥[المائدة]: ٢٩)

المدافعة ، والمقاومة ، والحماية ، والمطالبة ؛ وان من فقدها عجز عن جميع ذلك كلّه

مُلحَق في تأثير المغارم والضرائب

ويلحق بهذا الفَصل ، فيما يوجب المذلّة للقبيل ، شأنُ المغـارم (١ والضرائب :

فان القبيل الغارمين ما اعطوا اليدَ لذلك حتى رضوا بالمذلّة فيه ؛ لان في المغارم والضرائب ضيماً ومذلّة لا تحتملهـا النفوس الابية ، الا اذا استهونته عن القتل والتلف . وان عصبيّتهم حينئذٍ ضعيفة عن المدافعـة والحماية . ومن كانت عصبيته لا تدفع عنه الضَيم ، فكيف له بالمقاومة او المطالبة ، وقد حصل له الانقياد للذلّ . والمذلّة عائقةٌ ، كما قدّمناه . ومنه ، في «الصحيح» (٢ ، قوله (صلعم) ، في شأن الحَرْث ، لـمـا رأى سكّة المحراث في بعض دور الانصار (٣ : «ما دخلت هذه دارَ قومٍ الا دخلهم

١) المَغارم : ج . مَغْرَم وهو كالغُرم والغَرامة : ما يلزم اداؤه من المال ، على كره ؛ ضريبة الغالب على المغلوب .

٢) الصحيح : اول الكتب المصنّفة في الحديث ، واشهرها ؛ لان مؤلّفه ، ابا عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري (٨١٠ — ٨٧٠) بـذل المجهود في سبيل جمع الاحاديث ، فجال في معظم البلاد الاسلامية ، حتى جمع ٦٠٠،٠٠٠ حديث انتقدها ولم يقبل منها الّا ٧٢٧٥ سردها في « صحيحه » فقبلها الجميع من بعده . ونال كتابه شهرة واسعة ، فشرح ، وعُلِّقت عليه الحواشي ، مرّات عديدة ، ولا يزال اهمّ المؤلفات في هذا النوع .

٣) الانصار : اصحاب محمد من اهل المدينـة ، الذين استقبلوه ، ونصروه ، حين هجرته .

الذل.» فهو دليل صريح على ان المَغْرَم موجب للذلّة (١ . هـذا الى ما يصحب ذلّ المغارم من خُلق المكر والخديعة، بسبب ملكة القهر . ففي «الصحيح» ان رسول الله (صلعم) كان يستعيذ من المَغْرَم؛ فسُئل عن ذلك فقال: «ان الرجل، اذا غرم، حدّث فكذب، ووعد فأخلف.»

فاذا رأيت القبيل بالمغارم في رِبْقَةٍ من الذلّ، فلا تطمعنّ لها بمُلك، آخرَ الدهر . ومن هنا يتبيّن لك غلط من يزعم ان زَناتة، بالمغرب، كانوا شاوية يؤدّون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك، وهو غلط فاحش، كما رأيت . اذ لو وقع ذلك، لما استتبّ لهم ملك، ولا تمّت لهم دولة. وانظر فيما قاله شَهْرَبَراز (٢ ،ملكُ الباب، لعبد الرحمن بن ربيعة (٣ ، لما اطلّ عليه، وسأل شهربراز أمانه، على ان يكون له (٤ . فقال: « انا اليوم منكم، يدي في ايديكم، وصَغْوي (٥ معكم . فمرحباً بكم، وبارك الله لنا ولكم. وجزيتنا اليكم النصرُ لكم، والقيام بما تُحبّون؛ ولا تُذلّونا بالجزية فتوهنونا لعدوّكم.» فاعتبر هذا فيما قلناه فانه كافٍ

---

١) هذا رأي ابن خلدون الخاصّ في شرح الحديث المذكور . ولا يوافقه عليه باقي الشرّاح، بل يقول بعضهم ان مراد محمد كان ان يدفع اصحابه الى الجهاد، ويصرفهم عن الجبن وقلة الاهتمام، الظاهرة في من يركن الى الزراعة وطرق الكسب الحضرية .

٢) شَهْرَبراز: وفي معجم ياقوت: « شهريار » وهو ملك مدينة الباب (دربند) في صدر الاسلام . اما سقوط هذه المدينة في ايدي المسلمين فكان سنة ٢٢ هـ. (٦٤٣م) على قول ابن الاثير، وسنة ١٩ هـ. (٦٤٠) على قول ياقوت.

٣) عبدالرحمن بن ربيعة: كان قائد طليعة الحملة الاسلامية على الباب .

٤) على ان يكون لهُ: اي على ان يكون شهربراز مساعداً لعبد الرحمن.

٥) الصَّغو: الميل — صغا فلان الى فلان: مال اليه، وكان من حزبه.

الفصل العشرون

في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة، وبالعكس

لما كان الملك طبيعياً للانسان، لما فيه من طبيعة الاجتماع، كما قلناه؛ وكان الانسان اقرب الى خلال الخير من خلال الشر، بأصل فطرته، وقوته الناطقة العاقلة، لانّ الشرّ انما جاءه من قِبَل القوى الحيوانية التي فيه. واما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله اقرب. والملك والسياسة انما كانا له من حيث هو انسان. لانهما للانسان خاصة، لا للحيوان. فاذاً خلالُ الخير فيه هي التي تُناسب السياسة والمُلك؛ اذ الخير هو المناسب للسياسة. وقد ذكرنا ان المجدَ له اصلٌ يُبنى عليه، وتتحقق به حقيقته، وهو العصبية والعشير؛ وفرعٌ يتمّم وجوده ويكمّله، وهو الخِلال

واذا كان المُلك غايةً للعصبية فهو غاية لفروعها، ومتمّماتها، وهي الخِلال. لان وجوده دون متمّماته كوجود شخص مقطوع الاعضاء، او ظهوره عرياناً بين الناس. واذا كان وجود العصبية فقط، من غير انتحال الخلال الحميدة نقصاً في اهل البيوت والاحساب، فما ظنّك بأهل الملك الذي هو غاية لكل مجد، ونهاية لكل حسب

وايضاً فالسياسة والملك هي كفالة للخلق، وخلافة لله في العباد، لتنفيذ احكامه فيهم؛ واحكام الله في خلقه وعباده انما هي بالخير، ومراعاة المصالح، كما تشهد به الشرائع. واحكام البشر انما هي من الجهل

والشيطان ، بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره فانه فاعل للخير والشرّ معاً . ومقدّرهما اذ لا فاعل سواه (١. فمن حصلت له العصبية الكفيلة بالقدرة ، وأونست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ احكام الله في خلقه ، فقد تهيأ للخلافة في العباد ، وكفالة الخلق ، ووُجدت فيه الصلاحية لذلك . وهذا البرهان اوثق من الاول ، واوضح مبنى .

فقد تبيّن ان خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وُجدت له العصبية . فاذا نظرنا الى اهل العصبية ، ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والأمم ، فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله : من الكرم ، والعفو عن الزّلات ، والاحتمال من غير القادر ، والقِرى للضيوف ، وحمل الكَلّ (٢ ، وكسب المعدم ، والصبر على المكاره ، والوفاء بالعهد ، وبذل الاموال في صون الاعراض ، وتعظيم الشريعة ، واجلال العلماء الحاملين لها ، والوقوف عند ما يحددونه لهم من فعل او ترك ، وحسن الظنّ بهم ؛ واعتقاد أهل الدين ، والتبرّك بهم ، ورغبة الدعاء منهم ، والحياء من الاكابر والمشايخ ، وتوقيرهم ، واجلالهم ؛ والانقياد للحق مع الداعي اليه ؛ وانصاف المستضعفين من انفسهم ، والتبذّل في احوالهم ؛

---

١) يرى المتكلّمون ان اعمال الانسان «اختيارية» اي انها متعلّقة بارادته. ولكنه لا يفعلها إلا بقدرة الله ، لا بقدرته التي لا تأثير لها في تنفيذ اعماله . وهم يشرحون ذلك بقولهم ان الله «يُجري العادة» بان يجعل في الانسان قدرة وارادة اختيارية ؛ فاذا لم يكن في ذاك الانسان مانع ، قام بعمله الذي قدّره الله . وبهذه الطريقة تكون اعمال الناس من خلق الله ، ولكنها تبقى « مكسوبة » لهم ، اي انهم مسؤولون عنها .

٢) الكلّ : الضعيف ؛ العيّل .

والتواضع للمسكين، واستماع شكوى المستغيثين ، والتدين بالشرائع والعبادات ، والقيام عليها وعلى اسبابها ، والتجافي عن الغدر ، والمكر ، والخديعة ، ونقض العهد ، وامثال ذلك ؛ علمنا ان هذه خُلُق السياسة قد حصلت لديهم ، واستحقوا بها ان يكونوا ساسة لمن تحت ايديهم او على العموم ، وانه خيرٌ ساقه الله اليهم ، مناسبٌ لعصبيتهم وغَلَبهم . وليس ذلك سدىً فيهم ولا وُجد عبثاً منهم . والمُلك انسب الخيرات والمراتب لعصبيتهم . فعلمنا بذلك ان الله تأذّن لهم بالمُلك ، وساقه اليهم

وبالعكس من ذلك اذا تأذّن الله بانقراض المُلك من أُمة حملَهم على ارتكاب المذمومات ، وانتحال الرذائل ، وسلوك طرقها . فتُفقد الفضائل السياسية منهم جملة ، ولا تزال في انتقاص الى ان يخرج الملك من ايديهم ويتبدل به سواهم ؛ ليكون نعياً عليهم في سلب ما كان الله قد اتاهم من الملك ، وجعل في ايديهم من الخير : « واذا اردنا أن نُهلك قريةً ، أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها ، فحقّ عليها القول ؛ فدمّرناها تدميراً . » (١) واستقرئ ذلك ، وتتبّعه في الأمم السابقة ، تجد كثيراً مما قلناه ، ورسمناه . « والله يخلق ما يشاء ويختار ! » (٢

واعلم ان من خلال الكمال التي تنافس فيها القبائل اولو العصبيّة ، وتكون شهادة لهم بالملك ، اكرام العلماء ، والصالحين ، والاشراف ، واهل الحسب ، واصناف التجّار ، والغرباء ، وانزال الناس منازلهم . وذلك ان اكرام القبائل ، واهل العصبيات والعشائر ، لمن يناهضهم في

---

١) القرآن : (سورة ١٧ [الاسرى] : ١٧)

٢) القرآن : (سورة ٢٨ [القصص] : ٦٨)

الشرف ، ويجاذبهم حبل العشير والعصبيّة ، ويشاركهم في اتّساع الجاه ، امرٌ طبيعي يحمل عليه ، في الاكثر ، الرغبة في الجـاه ، او المخافة من قوم المكرَم ، او النّاس مثالها منه

واما امثـال هؤلاء ممن ليس له عصبية تُتّقى ، ولا جاه يُرتجى ، فيندفع الشكّ في شأن كرامتهم ، ويتمحّض القصد فيهم أنه للمجد ، وانتحال الكمال في الخلال ، والاقبال على السياسة بالكلّية . لان اكرام أقتاله وامثاله ضروري في السياسة الخاصّة بـين قبيله ونظرائه ؛ واكرام الطارئين من اهل الفضائل والخصوصيّات كمالٌ في السياسة العـامّة . فالصالحون للدين ، والعلماء للحاجة اليهم في اقامـة مراسم الشريعة ، والتجّار للترغيب ، حتى تعمّ المنفعة بهم ، والغرباء من مكارم الاخلاق (١ ومن الترغيب ببعض الوجوه ؛ وانزال الناس منازلهم من الانصاف ، وهو من العدل

فيُعلم ، بوجود ذلك من اهل عصبيّة ، انتماؤهم للسياسة العامّة ، وهي المُلك ؛ وان الله قد تأذّن بوجودها فيهم ، لوجود علاماتها . ولهذا كان أوّلُ ما يذهب من القبيل ، اهل المُلك ، اذا تأذّن الله تعالى بسلب مُلكهم وسلطانهم ، إكرامَ هذا الصنف من الخَلق . فاذا رأيته قد ذهب من أمّة من الأمم ، فاعلم ان الفضائل قد اخذت في الـذهاب عنهم ، وارتقبْ زوال الملك منهم . «واذا اراد الله بقومٍ سوءا ، فلا مردّ له ! » (٢

---

١) يعني : اكرام الغرباء من مكارم الاخلاق .

٢) القرآن : (سورة ١٣ [الرعد] : ١٢)

الفصل الحادي والعشرون

في انه، اذا كانت الأمّة وحشية، كان ملكها اوسع

وذلك لانهم اقدر على التغلّب والاستبداد، كما قلناه، واستعباد الطوائف، لقُدرتهم على محاربة الامم سواهم؛ ولانهم يتنزّلون من الاهلين منزلة المفترس من الحيوانات العُجم. وهؤلاء مثل العرب، وزناتة، ومن في معناهم من الاكراد، والتركمان، وأهل اللِثام من صنهاجة. وايضاً فهؤلاء المتوحّشون ليس لهم وطن يرتافون (١ منه، ولا بلد يجنحون اليه، فنسبة الاقطار والمواطن اليهم على السواء. فلهذا لا يقتصرون على ملكة قُطرهم وما جاوَرهم من البلاد؛ ولا يقِفون عند حدود أفقهم؛ بل يطفِرون (٢ الى الاقاليم البعيدة، ويتغلّبون على الأمم النائية. وانظر ما يُحكى، في ذلك عن عُمر (رضه) لما بُويع، وقام يحرّض الناس على العراق، فقال: «ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النُجعة، ولا يقوى عليه اهله الا بذلك. اين الطُرّاء (٣ المهاجرون عن موعد الله! سيروا في الارض التي وعدكم الله، في الكتاب، ان يورثكموها، فقال: «ليظهره على الدين كلّه، ولو كره المشركون.» (٤ واعتبر ذلك ايضاً بحال العَرب السالفة من قبل مثل

---

١) يرتافون: وفي كتب اللغة: راف، واريف، وتريَّف الرجل: اتى الريف. ومن معاني الريف: السعة في المأكل والمشرب.

٢) يطفرون: من طفِر: وثب في ارتفاع.

٣) الطُرّاء: الآتون من مكان بعيد — وفي نسخة بولاق: «القُرّاء».

٤) القرآن: (سورة ٩ [التوبة] : ٣٣).

التبابعة وحِمْيَر ، كيف كانوا يخطون ، فيما نُقل ، من اليمن الى المغرب مرة ، والى الهند (١ والعراق اخرى . ولم يكن ذلك لغير العرب من الأمم . وكذا حال الملثمين من المغرب ، لمّا نزعوا الى المُلك ، طفروا من الاقليم الاول ، ومجالاتهم منه في جوار السودان ، الى الاقليم الرابع والخامس في ممالك الاندلس ، من غير واسطة . وهذا شأن هذه الأمم الوحشية . فلذلك تكون دولتهم اوسع نطاقاً ، وابعد من مراكزها نهاية . «والله مقدّر الليل والنهار !» (٢

الفصل الثاني والعشرون

في ان الملك ، اذا ذهب عن بعض الشعوب من امّة ، فلا بدّ من عوده الى شعب آخر منها ، ما دامت لهم العصبية

والسبب في ذلك انّ الملك انما حصل لهم ، بعد سورة الغَلَب ، والإذعان لهم من سائر الأمم سواهم . فيتعيَّن منهم المباشرون للأمر ، الحاملون سرير الملك . ولا يكون ذلك لجميعهم ، لما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاق المزاحمة ، والغَيرة التي تجدع انوفَ كثيرٍ من المتطاولين للرتبة . فاذا تعيَّن اولئك القائمون بالدولة ، انغمسوا في النعيم ، وغرقوا في بحر الترف والخصب ، واستعبدوا اخوانهم ، من ذلك الجيل ، وانفقوهم في وجوه الدولة ومذاهبها . وبقي الذين بعدوا عن الامر ، وكُبحوا

---

١) وفي موضع آخر من المقدّمة ، ينفي ابن خلدون ما يتظاهر بقبوله هنا من غزوات التبابعة الى المغرب ، واطراف آسيا — راجع الروائع [مجلد ١٣ ص : ٩]
٢) القرآن : (سورة ٧٣ [المزمّل] : ٢٠)

عن المشاركة ، في ظلّ من عزّ الدولة التي شاركوها بنسبهم ، وبمنجاةٍ من الهرم ، لبعدهم عن الترف واسبابه . فاذا استولت على الاوّلين الايّام ، واباد غضراءهم (١ الهرم ، فطحنتهم الدولة ، وأكل الدهر عليهم وشرب ، بما أرهف النعيمُ من حدّهم واستقت غريزة الترف من مائهم ، وبلغوا غايتهم من طبيعة التمدّن الانساني ، والتغلّب السياسي ،

كدود القزّ ينسج ، ثم يفنى   بمركز نسجه في الانعكاس ،

كانت حينئذٍ عصبية الآخرين موفورة ، وسورةُ غلبهم من الكاسر محفوظة ، وشارتهم في الغلب معلومة . فتسمو آمالهم الى المُلك الذي كانوا ممنوعين عنه بالقوّة الغالبة ، من جنس عصبيتهم ؛ وترتفع المنازعة لما عُرف من غلبهم . فيستولون على الامر ، ويصير إليهم . وكذا يتّفق فيهم مع من بقي ايضاً منتبذًا عنه (٢ من عشائر أُمتهم . فلا يزال الملك ملجأً في الأمّة الى ان تنكسر سورة العصبيّة منها ، او يفنى سائر عشائرها : سنة الله في الحياة الدنيا ؛ « والآخرة عند ربك للمتّقين ؛ » (٣

واعتبرْ هذا بما وقع في العرب : لمّا انقرض ملك عاد ، قام به من بعدهم إخوانُهم من ثمود . ومن بعدهم ، إخوانُهم العمالقة . ومن بعدهم ، اخوانُهم من حِميَر . ومن بعدهم ، اخوانهم التبابعة من حمير ايضاً . ومن بعدهم ، الأذواء (٤ كذلك . ثم جاءت الدولة لمُضَر . وكذا الفُرس : لما

---

١) الغَضْراء : حالة الخصب ، والخير ، وطيب العيش .

٢) عنه : الضمير للملك .

٣) القرآن : (سورة ٤٣ [الزخرف] : ٣٤)

٤) الأذواء : ج . ذو ؛ وذو : لقب كان يتلقب به ملوك حِمْيَر ؛ فيقال لهم مثلاً :

انقرض امرُ الكينيّة، ملك، من بعدهم، الساسانيــة؛ حتى تأذن الله بانقراضهم اجمع، بالإسلام . وكذا اليونانيون انقرض امرهم وانتقل الى اخوانهم من الروم. وكذا البَرْبر، بالمغرب، لمــا انقرض امرُ مَغراوة، وكِتــامة (١ ، الملوك الاوَل منهم، رجع الى صنهاجة؛ ثم الملثمين؛ ثم المصامدة (٢ ؛ ثم من بقي من شعوب زناتة (٣ . وهكذا سنة الله في عباده وخلقه

واصل هذا كلّه انما يكون بالعصبية . وهي متفاوتة في الاجيــال. والمُلك يُخلِقُه التَرف، ويُذهبه، كما سنذكره بعد - فاذا انقرضت دولة، فانما يتناول الامرَ منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم، التي عُرف لهــا التسليم والانقياد؛ وأونس منها الغَلب لجميع العصبيات . وذلك انما يوجد في النسب القريب منهم . لان تفاوت العصبية بحسب مــا قرب من ذلك النسب التي هي فيه او بعد. حتى اذا وقع في العالم تبديل كبير من تحويل ملّة، او ذهاب عُمران، او ما شاء الله من قدرته، فحينئذٍ يخرج عن ذلك الجيل الى الجيــل الذي يأذن الله بقيامه بذلك التبديل؛ كما وقع لُمضر، حتى غلبوا على الأُمم والدول، واخذوا الامر من ايدي اهل العالم، بعد ان كانوا مكبوحين عنه أحقاباً

ذو يَزَن ، وذو الأذعار ، وذو القَرنين. ويدعون ايضاً «بالذوين» . ومنهُ المثل في التفخر : « كانه احد الذوين ! » اي كانه احد هؤلاء الملوك .

١) كان مقرّ مَغراوة في تِلِمسان ، وكتامة في القيروان .

٢) المصامدة : هم المعروفون ايضاً « بالموحّدين »

٣) باقي شعوب زناتة : هم قبائل عبد الواد ، والمرينيين .

الفصل الثالث والعشرون

في ان المغلوب مولَعٌ ابدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره ، وزيّه ، ونحلته ، وسائر احواله وعوائده

والسبب في ذلك أن النفس ابدًا تعتقد الكمال في من غلَبها ، وانقادت اليه : إمّا لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، او لما تغالط به من أنّ انقيادها ليس لغلبٍ طبيعي ، انما هو لكمال الغالب . فاذا غالطت بذلك واتصل لها ، صار اعتقادًا . فانتحلت جميع مذاهب الغالب ، وتشبّهت به : وذلك هو الاقتداء ؛ او لما تراه ، والله اعلم ، من ان غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوّة بأس . وانما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب ، تُغالط ايضاً بذلك عن الغَلَب . وهذا راجعٌ للأوّل . ولذلك ترى المغلوب يتشبّه ابدًا بالغالب في ملبسه ، ومركبه ، وسلاحه ، في اتخاذها ، واشكالها بل وفي سائر احواله . وانظر ذلك في الابناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبّهين بهم دائمًا ، وما ذلك الّا لاعتقادهم الكمال فيهم . وانظر الى كل قُطْرٍ من الاقطار كيف يغلب على اهله زِيّ الحامية ، وجند السلطان ، في الاكثر ؛ لانهم الغالبون لهم . حتى انه اذا كانت امّة تجاور أُخرى ، ولها الغَلَب عليها ، فيسري اليهم من هذا التشبّه والاقتداء حظٌّ كبير . كما هو في الاندلس ،[1] لهذا العهد مع أُمم الجلالقة[2] . فانك تجدهم يتشبّهون

---

١) الاندلس : المراد بهِ اهل الاندلس من المسلمين .

٢) الجلالقة : المراد بهم سكان مقاطعات ليون وقشتالة من النصارى

بهم في ملابسهم ، وشاراتهم ، والكثير من عوائدهم ، واحوالهم ، حتى في رسم التماثيل في الجدران ، والمصانع والبيوت . حتى لقد يستشعر ، من ذلك ، الناظرُ بعين الحكمة ، انه علامة الاستيلاء ؛ والامر لله ! وتأمل في هذا سرَّ قولهم : « العامّة على دين المَلِك ! » فانه من بابه ، اذ الملك غالب لمن تحت يده ، والرعيّة مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه ، اعتقادَ الابناء بآبائهم ، والمتعلّمين بمعلّميهم ؛ والله العليم الحكيم !

الفصل الرابع والعشرون

في ان الأمة ، اذا غُلبت وصارت في ملك غيرها ، أسرع اليها الفناء

والسبب في ذلك ، والله أعلم ، ما يحصل في النفوس من التكاسل ، إذا مُلك امرُها عليها ، وصارت بالاستعباد آلةً لسواها ، وعالةً عليهم . فيقصر الأمل ، ويضعف . والتناسل والاعتمار انما هو من حدّة الأمل ، وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية . فاذا ذهب الامل بالتكاسل ، وذهب ما يدعو اليه من الاحوال ، وكانت العصبية ذاهبةً بالغلب الحاصل عليهم ، تناقص عمرانُهم ، وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم ، وعجزوا عن المدافعة عن انفسهم بما خضَد الغلب من شوكتهم . فاصبحوا مغلّبين لكل متغلّب ، وطعمةً لكل آكل ؛ وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك ام لم يحصلوا

ثم يتوسّع في البرهان عن عدم تناسل الامم المغلوبة ، ويغلط ، إذ يذكر ، مثالاً على قوله ، انقراض الفرس بعد تملّك العرب عليهم . ومن المعروف انهم لم ينقرضوا

الفصل الخامس والعشرون

في ان العرب لا يتغلّبون الّا على البسائط

وذلك انهم، بطبيعة التوحُّش التي فيهم، أهلُ انتهاب وعَيْث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالَبَة، ولا ركوب خطر، ويفرّون الى منتجعهم بالقفر؛ ولا يذهبون الى المزاحفة والمحاربة، الّا اذا دافعوا بذلك عن انفسهم. فكلّ معقِل او مستصعب عليهم، فهم تاركوه الى ما سهل عنه، ولا يعرضون له. والقبائل الممتنعة عليهم باوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم، لانهم لا يتسنّمون اليهم الهضاب، ولا يركبون الصعاب، ولا يحاولون الخطر. واماّ البسائط، فمتى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة، فهي نهبٌ لهم، وطُعمة لآكلهم، يردّدون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم، الى ان يصبح اهلها مغلّبين لهم. ثم يتعاورونهم باختلاف الايدي، وانحراف السياسة الى ان ينقرض عمرانهم. والله قادرٌ على خلقه، وهو الواحد القهّار لا ربَّ غيره

الفصل السادس والعشرون

في ان العرب، اذا تغلّبوا على اوطان، اسرع اليها الخراب

والسبب في ذلك أنهم أُمّة وحشية باستحكام عوائد التوحُّش واسبابه فيهم، فصار لهم خلقاً وجبلّة؛ وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن رِبقَة الحكم، وعدم الانقياد للسياسة. وهذه الطبيعة منافية للعُمران، ومناقضة له. فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرِحلَة والتغلّب.

وذلك مناقضٌ للسكون الذي به العُمران، ومنافٍ له. فالحجر مثلاً انما حاجتهم اليه لنَصْبهِ أثافيّ (١ للقدور، فينقلونه من المباني، ويخرّبونها عليه، ويعدّونه لذلك. والخشب ايضاً انما حاجتهم اليــه ليعمّروا به خيامهم، ويتّخذوا الاوتاد منه لبيوتهم، فيخربون السقف عليه لذلك. فصـارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العُمران

هذا في حالهم على العموم. وايضاً فطبيعتهم انتهاب ما في ايدي الناس وانّ رزقهم في ظلال رماحهم؛ وليس عندهم في اخذ اموال النـاس حدٌّ ينتهون اليه. بل كلما امتدّت اعينهم الى مالٍ، او متاعٍ، او ماعونٍ، انتهبوه. فاذا تمّ اقتدارهم على ذلك بالتغلُّب والمُلك، بطلت السياسة في حفظ أموال الناس، وخرب العمران

وايضاً فلأنّهم يكلّفون، على اهل الاعمال من الصنـائع والحرف، أعمالهم، لا يرون لها قيمة ولا قِسطاً من الاجر والثمن. والاعمـال، كما سنذكره، هي اصل المكاسب، وحقيقتها. واذا فسدت الاعمال، وصارت مجّاناً، ضعفت الآمـال في المكاسب وانقبضت الايدي عن العمل، وابذعرّ (٢ الساكن، وفسد العمران

وايضاً فانهم ليست لهم عناية بالاحكام، وزَجر الناس عن المفاسد، ودفاع بعضهم عن بعض. انما همُّهم ما يأخذونه من اموال النـاس نهباً او غرامةً. فاذا توصّلوا الى ذلك وحصلوا عليه، أعرضوا عمّا بعدَه من تسديد أحوالهم، والنظر في مصالحهم، وقَهر بعضهم عن أغراض المفاسد. وربما

---

١) الاثافي: جـ. أُثفيّة: الحجر يُركز الى حجرين، فتوضع عليهـا القدر ويوقد تحتها.

٢) ابذعرّ: القوم: تفرّقوا.

فرضوا العقوبات في الاموال حِرْصاً على تحصيل الفائدة والجباية والاستكثار منها ، كما هو شأنهم . وذلك ليس بمغنٍ عن دفع المفاسد ، وزَجْر المتعرّض لها ؛ بل يكون ذلك زائداً فيها لاستسهال الغُرْم في جانب حصول الغَرَض . فتبقى الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم ؛ والفوضى مهلكة للبشر ، مفسدة للعمران ، بما ذكرناه من أن وجود المُلك خاصّة طبيعية للانسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم إلَّا بها ، وتقدَّم ذلك في اول الفصل

وايضاً فهم متنافسون في الرئاسة . وقلَّ ان يُسلِّم احدٌ منهم الأمر لغيره ، ولو كان اباه او اخاه او كبير عشيرته ، الّا في الاقلّ وعلى كُرهٍ ، من اجل الحياء . فيتعدَّد الحُكّام منهم ، والامراء ؛ وتختلف الايدي على الرعيّة في الجباية والاحكام ، فيفسد العُمران وينتقض . قال الاعرابي الوافد على عبد الملك ، لمّا سأله عن الحجّاج ، واراد الثناء عليه عنده بحسن السياسة والعمران ، فقال : « تركتُه يظلمُ وحدَه ! »

وانظرْ الى ما ملكوه وتغلّبوا عليه من الاوطان ، من لدُن الخليقة ، كيف تقوَّض عُمرانه ، واقفر ساكنه ، وبُدِّلت الأرض فيه غير الأرض : فاليَمَن ، قرارُهم ، خراب ، إلّا قليلًا من الامصار ؛ وعراق العرب كذلك ، قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع ، والشام لهذا العهد كذلك ؛ وافريقية (١ والمغرب (٢ ، لمّا جاز اليها بنو هِلال وبنو سُلَيم ، منذ عهد

---

١) افريقية : يستعمل مؤلفو المغرب هذه الكلمة طوراً بمعنى «تونس» وتارة بمعنى القُطر المؤلَّف من تونس ، وطرابلس الغرب ، ومقاطعة قُسَنْطينة ، وهو المقصود هنا .

٢) المغرب : المقصود به هنا مراكش .

المائة الخامسة ، وغرّسوا (١ بها لثلاثمائة وخمسين من السنين ، قد لحقا (٢ بها (٣ ، وعادت بسائطه خراباً كلّها، بعد ان كان، ما بين السودان والبحر الرومي ، كلّه عمراناً . تشهد بذلك آثار العُمران فيه من المعالم ، وتماثيل البناء ، وشواهد القُرى والمَدَر . والله يرث الارض ومن عليها ، وهو خير الوارثين ! (٤

الفصل السابع والعشرون

في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية ، من نبوّة ، او ولاية ، او اثر عظيم من الدين على الجملة

والسبب في ذلك أنهم ، لخُلق التوحّش الذي فيهم ، أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض ، للغلظة ، والأَنَفَة ، وبُعد الهمّة ، والمنافسة في الرئاسة ؛ فقلّما تجتمع اهواؤهم . فاذا كان الدين ، بالنبوّة او الولاية ، كان الوازع لهم من انفسهم ؛ وذهب خُلق الكِبر والمنافسة منهم . فسهل انقيادهم واجتماعهم . وكذلك بما يشملهم من الدين المُذهب للغلظة والأنفة ، الوازع عن التحاسد والتنافس . فاذا كان فيهم النبيّ او الوليّ الذي يَبعثهم على القيام بأمر الله تعالى ويُذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم

---

١) غرّسوا : اي احتكّوا بها وتعرّضوا لها بالشرّ .

٢) لحقا : الضمير لافريقية والمغرب .

٣) بها : الضمير لما تقدّم ذكره من البلاد : اليمن ، والعراق ، والشام — اي لحقا بها بالخراب واضمحلال العمران .

٤) راجع القرآن : (سورة ٢١ [الانبياء] : ٨٩)

بجمودها ، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحقّ ، تمّ اجتماعهم ، وحصل لهم التغلُّب والملك . وهم ، مع ذلك ، أسرع النـاس قبولًا للحقّ والهُدى ، لسلامة طِباعهم من عِوَج الملكات ، وبراءتها من ذميم الاخلاق ، إلا ما كان من خُلق التوحُّش القريب المعاناة ؛ المتهيّء لقبول الخير ببقـائه على الفطرة الاولى ، وبُعـده عمّا ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات . « فان كل مولود يولد على الفطرة » كما ورد في الحديث ، وقد تقدّم

الفصل الثامن والعشرون

في ان العرب ابعد الأُمم عن سياسة المُلك

والسبب في ذلك أنهم اكثر بداوةً من سائر الأُمم ، وأبعد مجالًا في القفر ، واغنى عن حاجات التلول وحبوبها ، لاعتيادهم الشَظَف وخشونـة العيش . فاستغنوا عن غيرهم ، فصَعُب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك ، وللتوحُّش . ورئيسهم محتاجٌ اليهم غالباً للعصبيّة التي بها المدافعة ، فكان مضطرًا الى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم ، لئـلّا يختلّ عليه شأن عصبيّته ، فيكون فيها هلاكُه وهلاكُهم

وسياسة الملك والسلطان تقتضي ان يكون السائس وازعاً بالقهر . والّا لم تستقمْ سياسته . وايضاً ، فان من طبيعتهم ، كما قدّمناه ، أخذ ما في ايدي الناس خاصّـة ؛ والتجافي عمّا سوى ذلك من الاحكام بينهم ، ودفاع بعضهم عن بعض . فاذا ملكوا أمّة من الامم ، جعلوا غايـة مُلكهم الانتفاع بأخذ ما في ايديهم ، وتركوا ما سوى ذلك من الاحكام بينهم .

وربما جعلوا العقوبات على المفاسد، في الاموال، حرصاً على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد . فلا يكون ذلك وازعاً . وربما يكون باعثاً ، بحسب الأغراض الباعثة على المفاسد ، واستهانة ما يُعطي من ماله في جانب غرضه ؛ فتنمو المفاسد بذلك ، ويقع تخريب العُمران . فتبقى تلك الأمة كانها فوضى ، مستطيلة ايدي بعضها على بعض ، فلا يستقيم لها عمران ، وتخرب سريعاً شأن الفوضى ، كما قدّمناه

فبعدت طباعُ العرب ، لذلك كلّه ، عن سياسة المُلك . وانما يصيرون اليها بعدَ انقلاب طباعهم ، وتبدُّلها بصبغةٍ دينيةٍ تمحو ذلك منهم ، وتجعل الوازع لهم من انفسهم ، وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض ، كما ذكرناه . واعتبرْ ذلك بدولتهم في المِلّة ، لمّا شيّد لهم الدين أمرَ السياسة بالشريعة واحكامها المُراعية لمصالح العمران ، ظاهراً وباطناً ؛ وتتابع فيها الخلفاء ؛ عظُم حينئذٍ ملكهم ، وقوي سلطانهم . كان رستم (١) اذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة ، يقول : « أكل عُمَرُ (٢) كبدي ! يعلّم الكلابَ الآداب ! »

ثم انهم ، بعد ذلك ، انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين ، فنسوا السياسة . ورجعوا الى قفرهم ، وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ، ببُعدهم عن الانقياد ، وإعطاء النَصفة (٣) فتوحّشوا كما كانوا . ولم يبقَ لهم من اسم الملك الّا انه للخلفاء ، وهم من جيلهم . ولما ذهب

١) رستم : قائد جيوش الفُرس في معركة القادسية سنة ٦٣٦ – راجع الروائع [جزء ١٣ ؛ ص: ٦٠]

٢) عمر : اي عمر بن الخطّاب : ثاني الخلفاء الراشدين (٦٣٤–٦٤٤)

٣) إعطاء النصفة : اي جهلوا اعطاء النصفة ، وهو العدل .

أمر الخلافة ، وامّحى اسمها ، انقطع الامر جملةً من ايديهم ، وغلب عليهم العَجَم دونهم . واقاموا في بادية قفارهم لا يعرفون المُلك ولا سياسته . بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم مُلك في القديم ؛ وما كان لاحدٍ من الامم في الخليقة ما كان لأجيالهم من المُلك . ودُوَل عاد ، وثَمود ، والعمالقة ، وحِميَر ، والتبابعة ، شاهدة بذلك . ثمّ دولة مُضر في الإسلام : بني أُمية ، وبني العبّاس . لكن بَعُدَ عهدُهم بالسياسة ، لما نسوا الدين ، فرجعوا الى اصلهم من البداوة . وقد يحصل لهم ، في بعض الاحيان ، غلب على الدول المستضعفة ، كما في المغرب ، لهذا العهد ؛ فلا يكون مآله وغايته الّا تخريب ما يستولون عليه من العمران ، كما قدّمناه . والله يؤتي ملكه من يشاء !

الفصل التاسع والعشرون

في ان البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لاهل الامصار

قد تقدَّم لنا ان عُمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والامصار ؛ لان الامور الضرورية في العمران ليس كلّها موجوداً لأهل البدو . وانما توجد لديهم ، في مواطنهم ، أمور الفَلح ، وموادُّها معدومة ، ومُعظمها الصنائع فلا توجد لديهم في الكلية : من نجّار ، وخيّاط ، وحدّاد ، وامثال ذلك ، مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفَلح وغيره . وكذا الدنانير والدراهم مفقودة لديهم . وانما بايديهم أعواضها من مُغَلّ الزراعة ، وأعيان

الحيوان، او خلافه: ألباناً، وأوباراً، وأشعاراً، و إهاباً (١)، ممـا يحتاج اليه أهل الامصار؛ فيعوضونهم عنه بالدنانير والدراهم

الّا ان حاجتهم الى الامصار في الضروري. وحاجةُ أهل الامصار اليهم في الحاجي والكمالي (٢). فهم محتاجون الى الامصار بطبيعة وجودهم. فما داموا في البـادية، ولم يحصل لهم مُلك ولا استيلاء على الامصار، فهم محتاجون الى اهلها، ويتصرّفون في مصالحهم وطاعتهم، متى دعوهم الى ذلك وطالبوهم به. و إن كان في المِصر ملك، كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك. وان لم يـكن في المِصر ملك، فلا بدّ من رئاسة، ونوع استبداد، من بعض أهله على الباقين؛ وإلّا انتقض عمرانه. وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعي في مصالحه، إمّا طوعاً ببذلِ المال لهم، ثمّ يبيح لهم ما يحتاجون اليه من الضروريات في مصره، فيستقيم عمرانهم؛ وامّا كُرهاً، ان تمّت قدرته على ذلك، ولو بالتّضريب بينهم حتى يحصل له جانبٌ منهم يغالب به الباقين. فيضطر الباقون الى طاعته، بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم. وربما لا يسعهم مفارقة تلك النواحي الى جهاتٍ أُخرى؛ لان كل الجهات معمور بالبدو الذين غلبوا عليها، ومنعوها من غيرها. فلا يجد هؤلاء ملجأً الّا طاعة المصر، فهم بالضرورة مغلوبون لاهل الامصار. والله قاهرٌ فوق عباده، وهو الواحد الأحد القهّار!

---

١) الإهاب : الجلد غير المدبوغ.

٢) والواقع على عكس ما يتصوّره ابن خلدون: فان حاجات اهل المدن الى اهل البوادي أمسّ من حاجات هؤلاء الى اولئك. اذ يمكن للبدوي ان يعيش بغنى عن المدن، مكتفياً بما هو ضروري لحياته فقط، كما قرّره مؤلفنا نفسه في غير موضع من مقدّمته.

فهرس

العمران البدوي

الروائع

سلسلة ابحاث في الادب ، ومنتخبات من اشهر اعلامه

السلسلة الثالثة

في الشعر

الشيخ ناصيف اليازجي	: منتخبات شعرية
فرنسيس مرّاش الحلبي	: 〃 〃
سامي باشا البارودي	: 〃 〃
الشيخ نجيب الحداد	: 〃 〃

في النثر

المعلّم بطرس البستاني	: مقالات منتخبة
الشيخ ابراهيم اليازجي	: 〃 في اللغة
ولي الدين يكن	: 〃 منتخبة
المعلّم سليم البستاني	: 〃 〃
اديب اسحق	: 〃 〃
جرجي زيدان	: 〃 〃

الروائع

سلسلة ابحاث في الادب ، ومنتخبات من اشهر اعلامه

السلسلة الثانية

ظهر حتى الان

١١ – ابو الطيب المتنبي : المدائح والاهاجي

١٢ – ابو الطيب المتنبي : المراثي والمفاخر والحكم

١٣ – ابن خلدون : المقدمة – ١ : مقدمة المقدمة

١٤ – « « – ٢ : العمران البشري على الجملة

١٥ – « « – ٣ : القبائل والامم الوحشية

يظهر قريباً

في الشعر

١٦ – ابو فراس الحمداني : منتخبات شعرية

في النثر

١٧ – ابو العلاء المعرّي : رسالة الغفران

١٨ – الجاحظ : كتاب الحيوان – ١

١٩ – الجاحظ : « « – ٢

٢٠ – « : « « – ٣